الأمير شكيب أرسلان

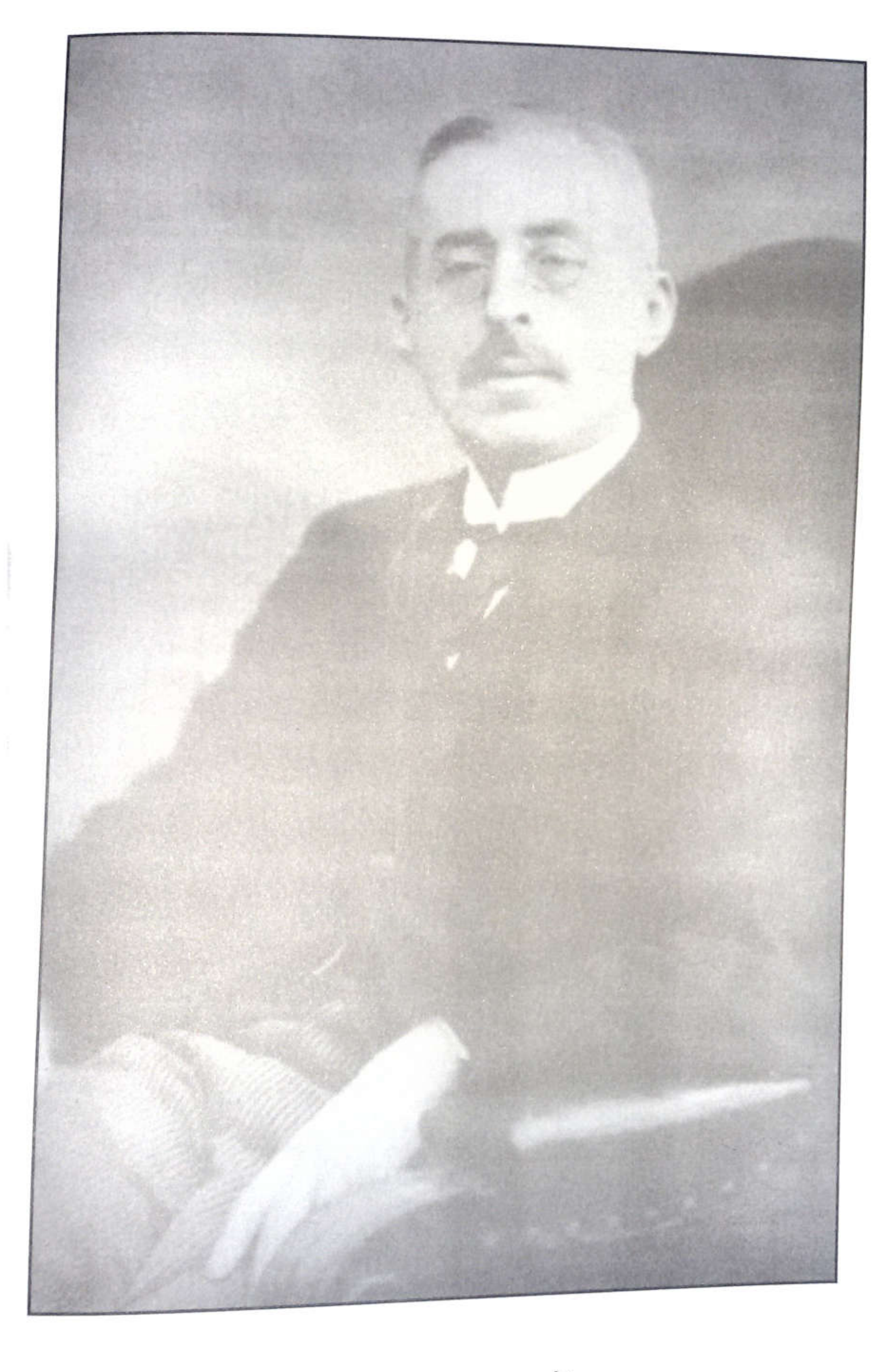
الرسائل المتبادلة بين الأمير و الشيخ عبد العزيز الثعالبي



الرسائل المتبادلة بين الأمير

و

الشيخ عبد العزيز الثعالبي

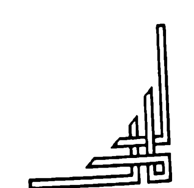


الأمير شكيب أرسلان

كلمة لا بدّ منها

إنَّ هذا التراث القيِّم مدين بالتنقيب عنه وجمعه وتنظيمه
إلى الأساتذة:
المرحوم الدكتور يوسف إيبش، والدكتور يوسف خوري،
والمحامي الأستاذ توما عريضه،
الذين لم يتوانوا عن شقّ المسافات الطوال وتكبُّد العناء
في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية
بحثًا واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم،
لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان،
طيّ النسيان والضياع.
فلهم دائم العرفان لِما بذلوه من تضحيات في سبيل جمع
هذا التراث ونقله.

الدار التقدّمية



مقدّمة الناشر

لا يُخفى على المتابع لمسيرة الدار التقدّمية في نشر فكر وتراث أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان، أنّ هذا التراث العميم الفائدة قد أضاء على نواحٍ عدّة في نضال العالم العربي والإسلامي، فكان بحقّ «داعية العروبة والإسلام» الذي أبى المذلّة والهوان والظلم، فانغمس في السياسة مواجهًا الاحتلال الغربي.

ولم يكتفِ الأمير بالسياسة منفذًا للذود عن العروبة والإسلام، بل اتّخذ نضالاً عروبيًا رديفًا، سلاحه الكلمة والرأي الحرّ، فحفظ بالكلمة لغة العرب من الخلل والاندثار، شعرًا ونثرًا، واستضاء الخَلق بفكره النيّر ورأيه السديد.

وتجدنا اليوم، ونحن في عالمٍ عربيٍّ انكفأت فيه اللغة العربية، مع ما تقاسيه من جحود ونكران، نعود إلى الأمير شكيب أرسلان، في بعض ما كتب لنعيد للّغة الأمّ مكانتها، وندرأ عنها ما اعتراها من شوائب، ونحيي من ثوابتها الكثير الصلب الذي يتحدّى الزمان.

الدار التقدّمية

رسالة رقم ١ **الآستانة العليا، ٧ يناير ١٩٢٤**

سيّدي الأخ الأستاذ:

اطّلعت على مكتوب منك ظهر لي فيه أنّه ضائق صدرك ممَّ لقيته بمصر ممَّا صادم آمالك وضاعف آلامك، والحقّ أنَّ الحالة التي جرّها الشقاق والمنافسات الشخصيّة بمصر هي مؤلمة، نسأل الله زوالها وأن يستبدل بها سكون الضائن وتهادن الأحزاب. وعلى كلّ حال فلو كنت هنا لضاق صدرك أكثر ممَّا ضاق بمصر... هكذا قدر الإسلام في هذا العصر أن تكون البلوى عاملة. وقد بلغنا أنَّ الإمام يحيى[1] اختلف مع الإنكليز، ولكن لم نعرف حقيقة هذا الائتلاف فهل عندكم خبر عنه؟ وهل هناك اعتراف من الإنكليز باستقلال اليمن الخارجي أيضًا؟ وهل للإنكليز شيء من الامتيازات، أم ليس سوى إقامة ممثّل لهم في صنعاء ومدّ خطّ الحديد من عدن إلى هذه المدينة؟

نخشى أنَّ هذا الممثّل بالتدريج يلعب هناك دورًا... وأنَّ الشافعيّة، غيضًا بالزيدية، يطلبون الحماية الأجنبية وأن يضيع استقلال اليمن أخيرًا كما ضاع استقلال سائر بلاد العرب، مع أنَّ الأمل كلّه معقود ببقاء اليمن. أفلا يمكن ذهاب وفد أنتم فيه للاطّلاع على حقيقة الحال؟ أفلا يمكن عمل شيء يهدأ معه البال؟ وُجِدَ في مصر جمعيّة الرابطة الشرقية ومنها صديقنا الأستاذ السيِّد رشيد رضا أفلا تتكلّمون معه لعلَّ هذه الجمعيّة تأتي بعمل من هذا القبيل؟

يجب إيقاظ اليمن وتشكيل إدارة خلفيّة متّحدة مع إعطاء كلّ قوم حقوقهم في اليمن حتّى لا يغتاظ فريق من فريق، ويجب الاهتمام قبل كلّ شيء بإقامة العدل ومراقبة القُضاة وإيجاد درجات للمحاكمات ممّا اعتقد أنه موجود من زمان الدولة،

---

(١) الإمام يحيى (١٨٦٩ ـ ١٩٤٨): يحي بن محمَّد بن يحي حميد الدين الحسني العلوي الطالبي. ملك اليمن من أئمّة الزيدية ولد بصنعاء وتفقّه وتأدّب بها وخرج منها مع أبيه إلى (صعده) ثمّ ولّي الإمامة بعد وفاة أبيه في (فقه عذر) شمالي صنعاء وكانت صنعاء في أيدي الأتراك فهاجمها وحاصرها واستسلمت له فدخلها لكن بعد مواصلة القتال تركها وخرج رأفة بأهلها وواصل القتال ومع تعيين الوالي محمَّد علي باشا عادت الثورة وحوصر الترك في صنعاء وانتهت المعارك بعقد الصلح ودخل الإمام يحيى صنعاء ولأنَّ حكمه امتاز بالفرديّة والاستبداد بالرأي فكان أيضًا منكمشًا داخل حدود البلاد شديد الحذر من الأجانب. قتل على أثر انقلاب دبّر له.

ولكن يلزم إقامة تفتيش صارم على المحاكم، ويلزم تشكيل جيش وتأسيس معمل سلاح في داخل اليمن لأنَّ هؤلاء الجماعة إذا وقعوا يومًا في حرب مع الإنكليز لن يتيسّر لهم ما يلزم من السلاح والعتاد من الخارج، وينبغي أنَّ مثل هذه التشكيلات لا يدخل فيها إنكليزي وإذا احتيج للمعامل إلى أوروبين فليكونوا من الألمان أو من السوريين أو من أمم لا مصالح لها باليمن. أنا لا أقدر أن أذهب إلى اليمن الآن، ولا بدّ لي من سنة بالأقلّ حتّى أشاهد العائلة وفيما بعد أفارقهم إلى محلّ، وقريبًا أذهب إلى مرسين إذ تأخّرت عن الوصول إليها بسبب هجوم الشتاء هنا وحصول نزلة لي جعلتني أحتاط لصحّتي.

فماذا يعنيكم من جهة اليمن وماذا تنكرون؟ وسلامي إلى حضرة الأستاذ السيِّد رشيد، وإن تكرّمتم بالجواب فليكن بأسمي بواسطة منثى أبناء عم تشاليلن خان غلطه الآستانة وهكذا يصلني أينما كنت.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شكيب أرسلان

رسالة رقم ٢ **مرسين، ٢ مارس ١٩٢٤**

سيّدي الأخ الأجلّ والأفضل:

شرّفني كتابكم رقم ١٨ يناير وحمدت الله على صحّتكم وفهمت منه أنّكم لم تقيموا بدون شغل هذه المدّة بل وفّقكم إلى عمل كبير يتعلّق بمهد الإسلام كان يخالج صدور الكثيرين ولا يرون منه مخرجًا، مرض كان يشعر به جسم الإسلام ولا يجد له علاجًا بل لا يجد طبيبًا حاذقًا يشخّص له ذلك المرض ثمَّ يأتي له بالدواء.

الإسلام كان يقدر أن يبرم قرارًا بشأن الحجاز إن لم يكن بالاتّفاق فبأكثريّة تقترب من الاتّفاق لكن كيف التطبيق؟ من ذا الذي ينفّذ ذلك القرار؟ إن قيل الإسلام يجتمع وينفّذه فالإسلام ليس بحرٍّ في نفسه حتّى ينفّذ شيئًا لأنَّ التنفيذ يلزمه قوّة مادّية والقوّة المادّية الزعيمة بالتنفيذ لا يملكها الإسلام. وإن قيل يطلب الإسلام من الدول النصرانيّة المالكة أمره أن ينفّذ ذلك القرار. فالكلام في هذا عبث لأنَّ الضرر الذي يكون من ذلك أعظم من الضرر الحاضر، وإن قيل بل الدول الإسلامية الباقية على الاستقلال مثل تركيا وأفغانستان وفارس والحجاز ونجد واليمن ومصر إن شاء الله هي التي تنفّذه، فقد يحتمل أنَّ هذه الدول نفسها لا تتّفق على وجه، وإن قيل بل تتّفق، فممّا لا شكَّ فيه أنَّ الحجاز يخالف لا سيّما في مدّة الملك حسين ويعضده في ذلك الحزب الذي في سوريا والعراق من القائلين بالقوميّة العربية[1] إنّها فوق كلّ شيء ـ لأنَّ هذا المبدأ ليس محصورًا في الطورانيين وحدهم بل بدأ عندنا ـ فقد كنت أبحث مع بعضهم في كون الحرَمين الشريفين شأنهما غير شأن الحجاز فجميع الحجاز ملك للعرب بلا نزاع، أمّا البيت الحرام والحرم المدني فهذا لجميع المسلمين. فكنت أقرأ على وجوه هذه الفئة التي ابتلينا بها ابتلاء الترك بالأغنيات والأقشورات[2] عدم الارتياح لقولي هذا وغاية ما هناك أنّهم يسمحون

(١) حزب القوميّة العربية في سوريا والعراق: والحزب الذي كان ينادي باستقلال الدول العربية ووحدتها انطلاقًا من إخلاء فرنسا وبريطانيا لمستعمراتها وسيأخذ نفسًا أكثر ووضوحًا كافيًا منذ ١٩٣٦ على إثر الأحداث الدامية في فلسطين والمطالب السياسية المقدّمة خلال هذه السنة في كلّ من سوريا والعراق.

(٢) الأغنيات والأقشوريات.

لسائر المسلمين بالحجّ والعمرة والزيارة. ثمّ هناك مانع آخر وهو أنه إذا اتّفقت هذه الدول الإسلامية على تطبيق قرار بشأن الحجاز وعارض فيه ملك الحجاز وحزبه وحاولت هذه الدول إجراءه بالقوّة، التجأ الملك الحسين إلى الأجانب. وممّا لا مريّة فيه أنّ دول أوروبا تكون يومئذٍ مع الحسين وتعرقل مسعى الإسلام ويكون للأسطول الإنكليزي دور ويقع فساد بعيد. أولى الحكومات بتنفيذ قرار عام كهذا هي حكومات جزيرة العرب اليمن وعسير ونجد بأن تتّفق هؤلاء ويبلغوا ملك الحجاز أنه لا بدّ من نظام جديد في مكّة والمدينة للحجّ والزيارة، ويبذلوا قصارى جهدهم في إقناعه به بالطرق السليمة ويستميلوا إلى ذلك قسمًا من أهل الحجاز ويأخذوا قرارًا من جمعيّة الخلافة في الهند وقرارات من سائر العالم الإسلامي مستظهرين بقوّته الأدبية فإن أبى الحسين واستكبر يحارب ويزحف إليه العرب فقط من نجد وعسير واليمن ومن نفس الحجاز إن أمكن.

مقصدي من هذه المقدّمة أن أؤيّد كلامهم من أنّ تنفيذ أيّ قرار بشأن الحرمين الشريفين بصورة مادّية يجد أمامه صعوبات لا تحصى، فالأولى أن نبدأ بمشروع ذي سلطة أدبية محضة سلاحه الدعاية في العالم الإسلامي فبعد أن تتأسّس هذه الجمعيّة ويتوزّع بروغرامها[1] يكون لها فروع في جميع الأقطار، وتجتهد أن تتّفق مع الجمعيّات الإسلامية وعظماء المسلمين في الهند وأنتم شخصيًّا تعرفونهم، ثمّ الجمعيّات الإسلامية في الجاوى[2] ثمّ نجتهد أن نأخذ موافقة الأفغان بواسطة كبار رجالهم مثل محمود ترزي خان سفير الأفغان بباريس ومحمّد ولي ناظر الخارجية في كابول وغيرهما ممّن لنا معهم صحبة أكيدة، وكذلك تتشكّل جمعيّة في الأستانة وتبثّ دعوتها مجلّة سبيل الرشاد[3] وكذلك يمكن بثّ هذه الروح في سوريا وفلسطين لأنّ قسمًا كبيرًا من أهلها لا تعجبهم حالة الحجاز الحاضرة، وتكون فروع

---

(1) بروغرام: كلمة لاتينية، تستعمل في اللغة الإنكليزية والفرنسية، وتعني البرنامج.
(2) وهي مدينة جاوه بأندونيسيا.
(3) مجلّة سبيل الرشاد، مجلّة صدرت في الأستانة سنة ١٩١١، وأسّسها وأدراها عبد العزيز جاويش.

في تونس والجزائر والمغرب الأقصى ونحصل على موافقة سيدي أحمد الشريف[1] هنا وموافقة سيدي إدريس بمصر وأهمّ البلدان التي تؤثّر في هذا الموضوع[2] في مصر واليمن ونجد، فإذا قبلت هذه الأقطار كلّها مشروع جمعيّتكم لم يسع الحجاز مقاومة العالم الإسلامي، ولو لم يتحمّل عليه إلاّ بسلطة أدبية لم يسع انقلترا ولا غيرها أن تعترض المسلمين في أمور دينية محضة، ولكن يتوقّف تأثير المشروع على ملك الحجاز أو ملوك الحجاز على مقدار السلطة الأدبية التي قلنا عنها، وهذه تتوقّف على بثّ الدعوة. ثمَّ إنَّ هذا المشروع يستلزم مؤتمرًا ومجامع وجلسات وغير ذلك يكون لها فوائد أخرى، وربّما صارت جمعيّة الحرمين هذه مرجعًا لأمور كثيرة ودقيقة جدًّا مطالعتكم بكون نظيركم من رجال النهضة الإسلامية يتمكّنون بواسطة عضويّة هذه الجمعيّة من الجولان ببلاد العرب لبثّ النصائح والقيام بأعمال أخرى بدون تعرّض لسوء من هذه الجهة ومن تلك الجهة...

من جهة المشروع أنا موافق عليه بدون اطّلاع على قانونه لأنني أمضي لك على بياض كما يقال، وما تراه حسنًا أراه أنا حسنًا. لا سيَّما والأستاذ الشيخ رشيد هو في هذا العمل وإن تفضّلتم بإرسال القانون أكون شاكرًا جدًّا، وأنا موكّلكم فإن وجدتم بي لباقة للعضويّة فالأمر لكم.

قضيّة اليمن ـ عدنا فسمعنا أنه لم يتمّ الاتّفاق بين الإمام والأنقليز وواحد عربي أقام مدّة باليمن وكان من أكثر الناس اطّلاعًا على دخائلها، وهو اليوم بمعيّة سيدي أحمد الشريف يؤكّد لي أنَّ الإمام لا يمكن أن يتّفق مع الإنكليز ولا مع غيرهم من الأجانب لأنَّ هذا مخالف لشروط الإمامة في مذهب الزيدية، وأنَّ هذه

---

(1) أحمد الشريف السنّوسي (١٨٦٧ ـ ١٩٣٣)، مجاهد، من كبار السنّوسيين أصحاب الطريقة المعروفة بهم. ولد وتفقّه في (الجغبوب) وأقام في (التاج) بواحة الكفرة ببرقة، وعند اعتداء الإيطاليين على طرابلس الغرب وبرقة قام ضدّهم سنة ١٩١١ وصارت برقة وطرابلس تحت لوائه. وعقد الصلح بين إيطاليا والعثمانيين، فحمل عبء الجهاد وحده إلى أن دبّ الخلاف بينه وبين ابن عمّه السيِّد إدريس. وقلّ أنصاره فدعى إلى الآستانة، وأنعم عليه السلطان برتبة الوزارة. وقامت حركة مصطفى كمال الاستقلاليّة فوالاها وأقام بمرسين، فاتّهم بالاتّصال ببعض (آل عثمان) بعد إلغاء الخلافة وأوعز إليه بالخروج من تركيا فقصد دمشق فلم يأذنوا له بالإقامة فرحل إلى الحجاز، فأكرمه الملك عبد العزيز آل سعود إلى أن توفّي بالمدينة. كانت له عدّة كتب منها (الأنوار القدسيّة) والـ (الفيوضات الربّانية).

(2) إدريس: أخ أحمد الشريف السنّوسي، قائد الثورة السنّوسية في طرابلس.

الأخبار كلّها رشح مساع يقوم بها بعض وكلاء الإمام مثل عبد الله العرشي وأمثاله، وأنَّ من هؤلاء المعتمدين من هم معروفون بعدم الصدق والاستقامة ومن يقبض الرشوة من الأجانب والإمام يعلم ذلك ويفوّضهم ظاهرًا ولا يسمع كلمتهم باطنًا بل يجعلهم واسطة لتعليق الآمال وعدم قطع العلاقات. ويقول لي هذا الرجل إنَّه لا يمكن أن يقبل الإمام بمدّ خطّ حديد من عدن إلى صنعاء، وأن لا يجوز تصديق هذه الأخبار ولو جاءت في كلّ الجرائد! فأنتم بمصر أقرب إلى اليمن وربَّما أتتكم أخبار فطابقوا بينها وبين هذه. أنا أرى أشدّ الأشياء ضرورة لليمن تأسيس الإمام معمل سلاح على الطراز الحديث في داخل بلاده، وهو على ما علمت غنيّ مدّخر أموالاً جمّة يقدر على ذلك وعدا ذلك بثّ الصناعة في بلاده. وهذا الرأي اتّفقت فيه مع المشير عزّت باشا، الصدر الأول، وهو الذي كان سبّب صلح الإمام مع الدولة وهي المرّة الوحيدة التي تصالحت فيها الدولة مع الإئمّة منذ ٤٠٠ سنة ولولا عزت باشا ما تمَّ هذا الصلح. ومن رأينا أنَّ الإمام يعتمد في مثل هذه المسائل الصناعية على الألمان دون غيرهم وقد تكلّمت مع بعض ضبّاط الألمان الذين أعرفهم من قبل في هذا الموضوع والذين أتوا الأستانة يسعون في أمور اقتصادية فقالوا إنَّهم حاضرون، ولمّا جئت إلى مرسين اتّفقت مع السيِّد السنّوسي على مشروع السلاح هذا وأن نبدأ ولو بالصغير أي بعمل للقرطاس ولإصلاح البنادق ونجعله في واحة الكفرة[1] حيث يقول السيِّد إنَّ الحديد موجود بكثرة. وبدأت بمراسلة بعض أحبابي من الألمان لإرسال هيئة فنّية إلى جغبوب[2] والكفرة، ثمَّ إنَّ بعض أحبابي ممّن انتخبوا أعضاء لمجلس النوّاب بمصر كاتبوني على آمالهم في الاستقلال القريب، فقلت لهم كلّ استقلال تأملونه لا يكون ناجزًا ولا حقيقيًا إلاَّ إذا أسّستم معمل سلاح تامًّا في وسط مصر وقرّرتم الخدمة العسكرية الإجبارية، عند ذلك تكون معكم كلّ الأمور وتنحلّ عقدة السودان ومسألة الامتيازات الأجنبية وكلّ شيء وبدون ذلك يبقى استقلالكم أعرج، فأرجو منكم أنتم أيضًا ومن

---

(١) الكفرة ـ واحة بالجنوب الشرقي بليبيا، كانت معقل جهاد السنّوسيين وآخر حصن سقط.

(٢) جغبوب، مدينة بالشمال الشرقي بليبيا، أحد أهمّ حصون المقاومة السنّوسية ضدّ الإيطاليين.

الأستاذ السيِّد رشيد إذ لا شكّ أنكم متّفقون معي في هذا الرأي أن تفاوضوا من تعرفون من النوّاب المصريين والمفكّرين منهم في هذا الأمر.

وكذلك استدعى نظيركم إلى نقطة أخرى قد ذكرناها في بيان أرسلناه إلى جريدة السياسة عن لسان السيِّد السنّوسي ـ وهو أنه خمدت المقاومة في طرابلس وسقط السنّوسيون فلا أمان من جهة العرب على مصر ولا طرفة عين ـ فلا يجوز للمصريين أن يتركوا السنّوسيين سرًّا إذ ليست مساعدة مصر للسنّوسيين هي قضيّة جامعة إسلامية كما يفكّر بعضهم، بل هي قضيّة تأمين استقلال مصر نفسها. مصر تبذل قوّتها للتخلّص من سلطة إنكلترا حتّى تقع تحت سلطة إيطاليا؟ إن لا سمح الله بطلت مقاومة طرابلس ـ القائمة بالسنّوسية فعلاً ـ وجرّدت إيطاليا العرب من سلاحهم كما هو مقصدها لم تلبث أن جنّدت من هؤلاء ما تشاء من الجيوش التي هي أشجع جيوش الأرض وزحفت بهم إلى مصر. ولا سيَّما وبروغرام إيطاليا الجديد واسع جدًّا هو الاستيلاء على كلّ ما استولت عليه رومة. أفلا يرى المصريون كيف كان سقوط الجزائر بابًا لسقوط تونس ثمَّ سقط المغرب، أم نبقى عميانًا إلى الأبد ظانّين أنَّ حبّ الذات هو أحسن السياسات، على أنه إن كان المصريون يحبّون حقيقة ذواتهم فلا يجوز أن تنقطع إعانتهم السرّية لمجاهدي طرابلس ولا يومًا، هؤلاء هم سور مصر من جهة الغرب وبدونهم تبقى مصر تحت الخطر الدائم ويضطرّ المصريون إلى دفع أموال هي أكثر من هذه الإعانات ألوفًا من المرّات. ألقيت مرساتي في مرسين وصرت بها من المرسيين وقريبًا تأتي عائلتي التي لم أشاهدها من ستّ سنين لأنَّ الشرق كلّه كان تحت الاحتلال وسيّدتي الوالدة تأبى على العائلة أن تسكن في بلاد غير الإسلام فالآن استأجر بيتًا هنا قريبًا يأتون إن شاء الله وإن تفضّلتم بالجواب فليكن باَسمي بمنزل دولة السيِّد السنّوسي لأنه أصرّ على نزولي عنده إلى أن تكون العائلة وصلت. وسلامي إلى الأستاذ السيِّد رشيد رضا والأستاذ الشيخ حسين الخضر التونسي وأطال الله بقاءكم للإسلام والمسلمين ولأحبّتكم.

بعد تحريري كتابي وقبل وضعه في البوسطة بقليل جاءت أخبار خلع الخليفة وإلغاء الخلافة[1] وإخراج بني عثمان من الأستانة وإسقاطهم من التبعيّة التركيّة إلى غير ذلك ممّا الأتراك أحرار به، لا حقّ لنا أن ندخل في أمورهم الداخلية أصلاً هم أدرى بأنفسهم.

لكن الذي لنا حقّ أن ننظر فيه هو مسألة الخلافة بعد أن رفضها الأتراك ولم يبقَ لهم حقّ أن يؤاخذوا أحدًا بعدم مبايعة خليفة البيت الحرام، تجتمع وتتذاكر في هذا الأمر، والذي أراه أنَّ المرشّحين يكونون خمسة: ملك مصر وهو الأولى لأنَّ مصر تقدر أن تحمل الخلافة وجميع آمالنا صارت معقودة بها في المستقبل ثمَّ الإمام يحيى وهو الثاني لأنه مستقلّ تمام الاستقلال وعصبيّته قويّة في العرب ثمَّ أمير الأفغان لأنه صاحب دولة وعصبيّة ثمَّ الملك حسين الذي لا شكّ أنه صار الآن يقبل الخلافة وصار حزبه ينادون به خليفة. وأمَّا الخليفة الموجود الذي بايعه أكثر المسلمين فإذا كانوا بمصر يريدون التصميم على مبايعته فلا بدَّ أن يجدوا له مركزًا في بلاد العرب إمَّا بمصر أو باليمن، وأظنَّ ذلك صعبًا لأنَّ صاحب اليمن يخشى أنه إن جلس في بلاده يأخذ الرياسة ومثل ذلك صاحب مصر، إلاَّ إذا كان مجلس النوّاب المصري يقرّر له مرتبًا ودارًا، يقيم ويتصيّر مثل خلفاء بني العبّاس في زمن سلاطين مصر المماليك.

أخوكم شكيب أرسلان

(١) إلغاء الخلافة بتركيا تمّ تدريجيًّا. فقد فصلت السلطة الدينية والسلطة السياسية في غرّة نوفمبر ١٩٢٢، وأعلنت الجمهوريّة في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣ وألغيت الخلافة في ٣ مارس ١٩٢٤ وأخرج الخليفة من البلاد.

رسالة رقم ٣ **برلين، ٢٣ مايو ١٩٢٦**

سيّدي الأخ الأستاذ:

كنت أترقّب سياحتكم بمزيد الاهتمام واتطلع بالخصوص إلى أخبار صحّتكم التي أعلم أكثر من الجميع قيمتها، والآن بلغني أنكم رجعتم إلى مصر فجئت مهنّئًا بسلامة القدوم سائلاً عمّا إذا كنتم ستقيمون بمصر أم تعودون إلى العراق وفّقكم الله كيفما توجّهتم.

عليّ أشغال كثيرة مستعجلة فلا تتيسّر لي الكتابة بقدر ما أشتهي، ولا أستغني عن أخذ آرائكم واستطلاع أفكاركم في أمور حيويّة كثيرة فسأوجز بقدر الإمكان.

لم يخطئ مؤتمر الخلافة[1] في الاجتماع فقد كان هذا الاجتماع واجبًا لو لم يستقر عن مبايعة خليفة لأنه خطوة أولى للغرض ومقدّمة لمؤتمر أعمّ وأكبر فما رأيكم؟ ولا بأس بالتأجيل بشرط انتخاب خليفة عندما توجد شروطه. أمدونا ببذل النصائح لكلّ من الإمام يحيى وبن سعود حتّى لا يقع بينهما حرب تفتّ في عضد العرب وتزيد استخفاف أوروبا بهم. من رأيي وجوب بقاء إمارة الإدريسي فاصلة بين الإمام وابن السعود فما رأيك؟

اجتهدت كثيرًا على صديقي الشريف علي حيدر[2] أن يذهب إلى الحجاز أيام كان علي في جدّة والحرب لم تنته فيكون حليفًا لابن سعود وأمير بعد ذلك على الحجاز فلم ينهض، والآن لا أرى ابن سعود بعد أن بذل ما بذله من مال ودم يرضى بتسليم الحجاز إلى علي حيدر وهو يعلم أنّه أميرها وابن أميرها وليس من المعقول أن يقوم ابن السعود بكلّ تلك المجاهيد حتّى يقدم ثمرتها أخيرًا للأمير علي

---

(١) مؤتمر الخلافة انعقد في مايو ١٩٢٦، وقد دعى إلى انعقاده شيوخ الأزهر بوصاية ملك مصر الذي كان يطمع في أخذ منصب الخليفة. ولم يثمر أيّ نتيجة وأحلت مسألة انتخاب الخليفة. حضر الشيخ الثعالبي هذا المؤتمر ممثّلاً عن العراق مع عطاء الخطيب.

(٢) الشريف علي حيدر (١٨٦٨ ـ ١٩٣٨)، من أشراف مكّة من (ذوي زيد). كان أسلافه حكّامًا بمكّة قبل انتقال إمارتها إلى أبناء عمّهم (ذوي عون) بتعيين محمّد بن عبد المعين بن عون شريفًا لها. ولد وتعلّم بالأستانة، وأصبح وزيرًا للأوقاف بها، ثمّ وكيلاً أول لرئاسة مجلس الأعيان، وعيّنه الأتراك شريفًا لمكّة عند ثورة الشريف حسين، لكنّه عاد إلى الشام واستقرّ في عاليه بلبنان وتوفّي ببيروت.

حيدر، لا سيَّما وأنَّ أهل الحجاز إجمالاً لا يحبّون الأشراف ويريدون التخلّص منهم. بلغني أنك مضاد لابن السعود فهل تقول لي وجهك في هذه المضادّة إن كان خبر المضادّة صحيحًا؟

أمَّا أنا فأناجيك بفكري لأني أثق بك كما أثق بنفسي، وإن رأيتَ خطأ صحّحه لي فعندك خبرة ورأيت بعينيك وسمعت بأذنك ومن الأصل أصالة رأيك معلومة.

أنا لا أرى الملك حسين[1] هرِمَ واهتزّ فقط بل لا أعتقد فيه سلامة العقل... ومن تعينه بعض سفرائه... وانتدابه مثل هؤلاء للمهام السياسية الخطيرة أعلم أنَّ فيه خرقًا لا سدّ لخرقه.

أنا أسمع الثناء على ابنه علي[2] لكنّه لا يقدر أن يقلع ابن سعود من الحجاز وليس في الإسلام دولة تقدر أن تعيد عليًّا إلى الحجاز برغم ابن السعود. فيصل كنت أحبّه وأحسن الظنّ فيه، لكن مصانعته لفرنسا في الأشهر الأخيرة أشبه بدناءات أخيه عبد الله الذي لم يدَع وسيلة يتقرّب بها إلى الفرنسيين إلاَّ استعملها، وقد صرت أميل إلى رأي بعضهم الذي هو أنَّ هؤلاء الجماعة يتّجرون بمصالح العرب الحيوية ليربحوا عروشًا وقروشًا... ماذا عمل فيصل للسوريين في غمراتهم هذه باطنًا أم ظاهرًا؟ نعم أشار عليهم بصلح غير موافق. أنا لا أرى ابن السعود أفضل من هؤلاء، أراه مع بداوته أفهم منهم وأخلص للعرب ثمَّ أقوى عصبيّة وجندًا بحيث

---

(١) الملك حسين (١٨٥٤ ـ ١٩٣١)، وهو حسين بن علي بن محمَّد بن عبد المعين بن عون الحسيني الهاشمي. أول من قام في الحجاز باستقلال العرب على الترك، وآخر من حكم مكّة من الأشراف الهاشميين. ولد في الأستانة وكان أبوه منفيًا بها، وانتقل معه إلى مكّة فتأدّب وتفقّه ونظم الشعر. وأحبّه عمّه الشريف عبد الله باشا (أمير مكّة) فوجّهه في المهمّات فدخل نجدًا وأحكم صلته بالقبائل ومات عمّه وأبوه وآلت إمارة مكّة إلى عمّه الثاني عون الرفيق، فأبعده من الحجاز ونفي بالأستانة إلى أن عيّن أميرًا على مكّة سنة ١٩٠٩. واتّصل به الإنكليز من مصر يحرّضونه على الأتراك. فنهض في ٧ جوان/حزيران ١٩١٦ وحاصر من كان في الحجاز خاصّة الأتراك منهم ووجّه ابنه إلى سوريا فدخلها مع الجيش البريطاني. وأصبح ابنه عبد الله ملكًا على الأردن، وفيصل على العراق بعد ثورتهم على الإنكليز. ولم يقبل الصلح مع ابن السعود وقطع عليهم الحجّ. فهاجمت الطائف جموع من نجد وتربة والخرمة وهزمت جيش الحسين. واستنجد بالإنكليز فلم يساعدوه ففرّ إلى العقبة ثمّ إلى قبرص إلى أن مرض وتوفّي بالقدس.

(٢) علي بن الحسين (١٨٨١ ـ ١٩٣٥)، كان أكبر أبناء الملك حسين. ولد بمكّة وأقام زمنًا مع أبيه في استانبول وبرز نشاطه مع أبيه في الثورة على الأتراك (١٩١٦ ـ ١٩١٨)، أصبح رئيسًا لمجلس الوكلاء بمكّة وعهد إليه بشؤون القبائل. ولمّا أغار الملك ابن السعود على الطائف في ٣ اكتوبر ١٩٢٤ انتقل إلى جدّة وبويع فيها، وعبّأ جيشًا كبيرًا واشتدّ حصار ابن سعود على جدّة، فنزل على عرشها في ديسمبر ١٩٢٥ وانصرف إلى بغداد، واستقرّ في ضيافة أخيه فيصل ثمّ ابنه غازي بن فيصل إلى أن توفّي.

يهابه الأجانب أكثر ممّا يهابونهم. أنا أعذر ابن السعود في عدم الضوضاء بمساعدة سورية ونحن لا تنفعنا الضوضاء، على أنني واثق بأنه موطّن النفس على المعاونة سرًّا وأنه متى انتهى الحجّ يعمل ما يقدر عليه. ثمَّ إنَّ من رأيي أنه ما دام قد استولى على الحجاز وهو أقوى أمير عربي في تلك الجهة نساعده بالذي نقدر عليه حتّى تصطلح أمور الحجاز، فهو رجل بدوي لكنّه ذكي يقدّر قدر المدينة ويعمل برأي المتخصّصين وإنَّ وجوده بمكّة يدنيه من الحضارة ويجعله على صلة بكلّ العالم الإسلامي، فإن لم يكن هذا الرأي فأيَّ رأي أفضل منه؟ من عساه يحفظ الحجاز ويقدر على إيجاد سلطة تقيه من الفوضى. تركيا ذهبت من هناك، الإمام يحيى لا يقدر أن يأتي ويكفينا أن يوفّق لحفظ اليمن. مصر كانت أولى بالحجاز لولا أنّها لا تزال إنكليزية. إذن مَن؟

لا أرى لزومًا لكلّ هذا التعصّب الذي يظهره الوهّابيون في الحجاز. ولكن يا أخي لثم الأحجار والأشجار وما أشبه ذلك لا يلائم ابن السعود وكلّ مسلم إذن كرهها. هذه بقايا وثنيّة وأكثر ما يحبّها أهل الهند.

كان بلغني أنَّ حكومة العراق منعت الحجّ مراعاة لخاطر فيصل؟ فأسفت جدًّا. أحكومة إسلامية تمنع ذلك الحجّ الذي هو من أركان الدين من أجل خواطر شخصيّة؟ أنقرة[1] كانت منعت الحجّ وعملها هذا منطقي. أنقرة تعتقد أنَّ الإسلام مانع للترقّي فالحجّ من أركان الإسلام فهي تمنعه. أنقرة تقوّي الطورانيّة وتقوية الطورانيّة تقتضي إقامة الجنسيّة مقام الدين وهذا لا يلتئم مع الذهاب كلّ سنة إلى بلاد عربية وأيّ مدخل للترك بالعرب. أنقرة مخطئة جدًّا بدون شكّ لأنَّ الأصل الذي بنت عليه غير مسلم بتمام صحّته ثمَّ بلغني أنها لم تمنع الحجّ مراعاةً لخاطر شخص بل لمبادئ.

---

(١) أنقرة: وهي مدينة أنقرة، اتّخذها كمال أتاتورك عاصمة للجمهوريّة التركية ضمن إصلاحاته وتوجّهه إلى المدنيّة الغربية، ويقصد بها هنا حكومة تركيا.

ثمَّ بلغني أنَّ قافلة حجّاج جاءت من العراق إلى مكّة فسررت.

كنت عاتبًا على الدروز لتقاعسهم عن مقاومة فرنسا[1] فأظنّهم كفّروا عن تقصيرهم الماضي ورضيت عنهم. ثق يا أخي لو وجد عندهم خرطوش كافٍ ـ لا أقول أدوات حربية متعدّدة، خرطوش فقط يسدّ الحاجة، ما أمكن الفرنسيين أن يثبتوا إلاَّ في ساحل البحر ولكن... وللأسف لا الريف ولا حوران قدر المسلمون أن يمدّوهما بشيء يُذكر، إذًا العالم الإسلامي لم يزل نائمًا. إذًا نموت في الحسرات فعسانا، إذا متنا، يبقى معنا الأمل بأنَّ أولادنا وأحفادنا يرون أيامًا أسعد من أيامنا وأقبّل عوارضكم وأرجو أن تنوبوا عنّي بتقبيل عوارض الأخ الحبيب الأستاذ السيِّد حبيب العبيدي والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم شكيب أرسلان

لوزان

(1) مقاومة الدروز للفرنسيين، وهي المقاومة التي بدأت سنتي ١٩٢٥ و١٩٢٦ عند محاولة فرنسا فصل منطقة جبل الدروز عن سوريا. وأخيرًا أذعنت السلطات الفرنسية وبقيت منطقة الجبل تابعة لسوريا وأهم مدنها صويدة.

رسالة رقم ٤ جنيف، ١٩ شوّال ١٢٥١هـ(١٥/٢/١٩٣٣م)

سيّدي الأخ المحترم:

اطّلعت في الجرائد على احتفالك بالسنيور الإسباني مانويل دولا توري[١] وابنه ودعوتك نخبة من فضلاء العرب لمؤانسته وتداول الكلام بشأن التآخي الإسلامي/الإسباني الذي نحن ندعو له، وقد سرّني ذلك كثيرًا وجئت أشكرك ولو كان مثل هذا لا يستغرب من مثلك، وإن كنت أنت لا تقدّر هذه الأمور قدرها فمن؟

يا سيّدي لو كان ثمّة بقي مسلمون لكانوا أحيوا الإسلام في إسبانيا من جديد. ولكن واحسرتاه على الإسلام أين هو؟ إنَّ بلادًا كان فيها ملايين من المسلمين مدّة ألف سنة وأعقابهم هم يعرفون أنَّ أصلهم عرب ومن هم مفتخرون بذلك. أفلا يمكن تجديد روح الإسلام فيهم؟ بلى ولكن لا بدّ من السعي.

بعض الناس يقولون: نحن مشغولون بأنفسنا وببلداننا وليس عندنا وقت لإسبانيا وتجديد الإسلام أو العروبة فيها. يجب علينا أن نتفرّغ للإسلام والعروبة في عقر دارنا. أقول لهم هذا خطأ منكم فالأمّة التي لا تفيض إلى الخارج لا يرجى أن تحفظ نفسها في الداخل. إن كنّا لا نقدر أن نثبت ثقافتنا وعقيدتنا في البلدان النائية فذلك دليل على أننا عاجزون عن حفظها في البلاد التي هي تحت أرجلنا.

بالاختصار بعد إعلان الجمهوريّة[٢] في إسبانيا ظهرت تلك النزعة التي كانت كامنة في نفوس كثيرة من أهل تلك البلاد وهي النزعة العربية، قام بها أناس ممّن يكرهون الكثلكة مطلقًا فيريدون مقاومتها في كلّ شيء، وأناس آخرون يخشون رجوع الجمهوريّة إلى المبادئ الكاثوليكية، وأناس آخرون يحنّون إلى العرب بمقتضى الفطرة لأنهم يعلمون أنَّ أصلهم عرب. وأكثرهم من سكان الولايات الجنوبية أي الأندلس. والفلاّحون في الأندلس يحاولون أخذ الاراضي التي هي في

---

(١) Manuel DellaTorres إسباني، من الحزب الإشتراكي وعضو بالجمعيّة الإسبانية ـ الإسلامية.

(٢) إعلان الجمهوريّة في إسبانيا تمّ بعد انتخابات جوان/حزيران ١٩٣١.

أيديهم لكنّها للنبلاء والإكليروس فهم يقولون: هذه الأراضي كانت لأجدادنا وكانوا مسلمين فلمّا فتحتم البلاد من أيديهم غضبتم هذه الأراضي غصبًا فنحن نريد استرجاع أملاك آبائنا فلهذا نجد في الأندلس عند هؤلاء الفلاّحين من بعض الكثلكة ما لا تجده في غيرها. ولا شكّ أنك قرأت أخبار حريق الكنائس والأديرة فإنه لا يمضي شهر إلاَّ وتحصل حوادث من هذا النمط، أساسها نزوع العرق العربي بكثيرين هناك، وليس الشيوعية كما يُظنّ، ولولا سطوة الحكومة لكانت الكنائس والأديرة تحرق بالمئات. وقد جاءتني مكاتيب من أشبيلية[1] ومن غرناطة[2] تدلّ على المنازع العربية الحقيقية وكانوا قد سمعوا بي وأشار عليهم بعض مسلمي المغرب بمراسلتي فصاروا يكاتبونني في الموضوع وصرت أجاوبهم، ولكن بقيت محتفظًا في كلامي خشية أن ينشروا كلامي في جرائدهم فيقلق ذلك بال الحكومة...

وكان كلامي أنَّ العرب لا ينكرون ما بينهم وبين الإسبانيول من العلاقات والأرحام ويكونون سعداء بإيجاد التوادّ والتعاطف بينهم وبين جميع الإسبانيول. وأمّا في الأندلس فيوجد حزب رئيسة الفانت بيريز[3] هدفه استقلال داخلي للأندلس ضمن الجمهوريّة الأيبيرية تكون فيه أشبيلية وقرطبة ومالقة وقادس ورونده، إلخ... ولايات ذات استقلال داخلي ويتّحد معها منطقة إسبانية في المغرب ويكون الجميع أندلسيين ومتساوين. هذا الرجل كتب لي عن «بروغرام» وأجبته لكن باحتياط. وكذلك قال لي أنَّ مرادهم بناء جامع في أشبيلية وأنا رغّبتهم في هذا العمل فكتبت إلى الحاج عبد السلام بنونة[4] في تطوان سائلاً: كم تشاطرون في كلفة

(١) إشبيلية، مدينة بإسبانيا بمنطقة الأندلس.

(٢) غرناطة، مدينة إسبانية بمنطقة الأندلس.

(٣) A.Perez رئيس حزب إسباني هدفه الاستقلال الداخلي للأندلس.

(٤) الحاج عبد السلام بنونة (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥)، ولد بتطوان. والده من كبار موظّفي الدولة في عهد السلطان مولاي الحسن الأول، تعلّم القرآن ثمّ أقبل على الدروس العلمية بحضور مجالس العلماء منهم البقالي وابن الأبار والزواتمي والرهوني وغيرهم... تعلّم اللغة الإسبانية في شبابه قبل دخول الحماية الإسبانية للمغرب، وذلك ما هيّأه إلى مناصب حكومية كبيرة والتدرّج فيها. عيّن سنة ١٩١٥ للمستفاد بتطوان ثمّ محتسبًا سنة ١٩١٦ وعندها أدخل إصلاحات عديدة في الحِرَف والصناعات. أسندت إليه سنة ١٩٢٢ وزارة المالية عندما حدث تغيير في حكومة الخليفة السطاني في منطقة شمال المغرب. وأقبل قبل أن تمضي عليه سنة واحدة للمطالبة بإصلاحات جذرية. تعاون في سنة ١٩١٦ مع العلاّمة السيّد أحمد الرهوني على تأسيس (المجتمع العلمي)، أصبح أمين مال هيأته الأولى التي أصدرت مجلّة (الإصلاح). عيّن عضوًا في المجالس البلدية بتطوان أربع مرّات وكان عضوًا بعديد الجمعيّات وعضوًا مراسلاً في أكاديمية العلوم التاريخية بمدريد. كان عضوًا مؤسّسًا ـ

الجامع بأشبيلية؟ فأجابه بنونة: نشاطر بالنصف وإن من مبادئ هذا الحزب إعادة مسجد قرطبة للإسلام، وفي مجلس النوّاب ستّون صوتًا يعزّزون هذه الفكرة هم أقلّية لكنّهم أقلّية ذات بال. وكان أصل الفكرة منّي لأني عند إعلان الجمهوريّة في مجريط[1] أرسلت إلى تطوان بأن يوفدوا وفدًا إلى مجريط ويقدّموا مطالب باستقلال داخلي ضمن الحماية الإسبانيولية. أشرت بمطالب معتدلة حتّى تكون مقبولة فجاءني الجواب من تطوان بأنهم في خلاف لا يتّفقون وأنَّ الفرصة ضاعت، فأرسلنا إلى الطلبة الذين في باريس ليذهبوا إلى تطوان ويوافقوهم، فانتدب لذلك الشاب النابغة أحمد بلافريج[2] ـ صاحب مجلّة (المغرب) الفرنسية اللغة ـ Le Maghreb[3] التي نزلت كالصاعقة على الاستعمار هذه المدّة ـ فذهب ووافقهم وحرّر لائحة المطالب وختمها ١٥٠٠ شخص من كلّ الريف وجاء بها وفد إلى مجريط، وكنت أوصيتهم بأن لا ينسوا قضيّة جامع قرطبة فجعلوها من جملة المطالب.

وقد حظي الوفد الريفي يومئذٍ بكلّ قبول وقرّرت الجمهوريّة إجابتهم إلى هذه المطالب لأنها كلّها معتدلة معقولة.

فلمَّا علم بذلك رجال الأم الحنون... جنَّ جنونهم وقاموا لدى الجمهوريّة بمساعٍ قضت على مطالب الريفيين تمامًا ولم يعوّلوا لهم شيئًا إلاَّ انتخاب البلديّات وأرسلوا لهم مقيمًا عامًّا خادمًا لأغراض الأمّ الحنون... اسمه أسبوس فري[4].

= للجمعيّة الإسبانية ـ الإسلامية والبيت العربي بمدريد. وقام بتكوين أول جمعيّة بالمغرب للدفاع عن حقوق الإنسان سنة ١٩٣٣. أول الدعاة لتأسيس المدرسة الأهلية بتطوان سنة ١٩٢٥. أسّس سنة ١٩٢٨ معملاً لتوليد القوّة الكهربائية جلب معدّاته من ألمانيا وأسّس له شركة (التعاون الصناعية). توفّي بمدينة (الرندة) الأندلسية في ٩ يناير ١٩٣٥.

(١) مجريط وهو الأصل العربي لمدينة مدريد عاصمة إسبانيا الحالية.

(٢) أحمد بلافريج: مناضل مغربي، من مواليد ١٩٠٨. أتمّ دراسته بباريس ثمَّ بالقاهرة، أصبح الكاتب العام لحزب الاستقلال المغربي سنة ١٩٤٤. نفي من طرف السلط الاستعمارية، وعند دعوته إلى المغرب أصبح وزيرًا للخارجية (١٩٥٥ ـ ١٩٥٨)، ثمَّ وزيرًا أول لمدّة قصيرة، ثمَّ وزيرًا للخارجية (١٩٦١ ـ ١٩٦٣)، ثمَّ ممثّلاً للملك المغربي. في كلّ مراحل الحركة الوطنية، كان من أوائل الدافعين لخطواتها الأولى، ربطته علاقات كبيرة بالأمير شكيب أرسلان.

(٣) مجلّة Le Maghreb بباريس، صدرت بفرنسا، في جويلية/تموز ١٩٣٢ بمساعدة الاشتراكي لونڤي مقيم عام إسبانيا بالريف بداية من جانفي ١٩٣٣.

(٤) أسبوس فرير.

وغير خافٍ أنَّ المغرب واحد، فالفرنسيس يرون أنّه إن نالت المنطقة الإسبانيولية شيئًا من الحرّية. نالت المنطقة الفرنسية بقدره بلا مراجعة فلذلك وجّهوا جميع قوّاتهم إلى مجريط ليمنعوا إعطاء أيّ شيء للمنطقة الإسبانية. أمَّا كلام الفرنسيس للإسبانيول عنّا وقولهم إنَّ الحركة آتية من الشرق وإنَّ هذا كلّه من تصميمهم وإنَّ أخطاره كذا وكذا فهذا كلّه أنت تعلمه. فذكرنا عندهم أشبه بورد من الأوراد ولا تظنّ أنَّ نصيبي في هذا أعظم من نصيبك... كلّنا في الهوى سوى.

عندما قضت فرنسا على مطاب الريفيين بدسائس لوسيانن سان[1] وغيره قام الحزب العربي في مجريط وألّفوا الجمعيّة الإسبانية-الإسلامي واقترحوا عليّ رئاستها الثانية وبديهي أني قبلت ومشيت في المشروع، وما كنت في حياتي نذلاً ولا سفلاً ولهذا لم تهمّني مطاعن جرائد فرنسا. وهذه الجمعيّة فيها رهط من إخواننا وأولادنا من فاس وتطوان والرباط ولنا أمل أن يدخل غيرهم وفيها رهط من الإسبان من النوّاب والمفكّرين والصحافيين. ولمّا رأينا أنَّ «لسبوس فرير» سائر على خطّة استعمارية صرفه في تطوان بيّنا لزملائنا أنَّ هذه الحال لا تساعد على نموّ الجمعيّة، إذًا ما نقول للمسلمين حتّى نرغّبهم فيها وهذه المنطقة الإسبانيولية في المغرب لا تزال تحت الضغط؟ فهذه الجمعيّة تابعت العمل حتّى اقتلعت فرير من تطوان وأرسلت الحكومة رجلاً من برشلونة يُرجى أن يسير على خطّة فرير وأن كان لوسيان مرّ بهذه المدّة على مجريط ليحذر هناك من تنفيس خناق المنطقة الإسبانيولية. فالأخ يرى أنَّ هذه الجمعيّة الإسبانية الإسلامية مفيدة وأنها تدافع عن إخواننا مسلمي الريف بالفعل وتقضي لبناتهم، هذا فضلاً عن تجديد الروح العربية في نفس إسبانية. ولكن نجاح هذه الجمعيّة في مجريط يتوقّف على نموّها في العالم الإسلامي وجماعة الأم الحنون قالوا لهذه الجمعيّة - وقرأنا ذلك في جرائدهم - وأنتم تظنّون أنَّ العالم الإسلامي

(١) لوسيان سان: من مواليد مدينة إيفرو بفرنسا في ٢٦ أفريل ١٨٦٧. بعد تولّيه مناصب عديدة بفرنسا عيّن مقيمًا عامًّا بتونس في أواخر سنة ١٩٢٠، وباشر بكسر عمل الحركة الوطنية بدهاء كبير، وأدخل إصلاحات جويلية ١٩٢٢ شلّ بها مجهودات الحركة الوطنية وأحبط مطالبها. وخلال حكمه بتونس أصدر القوانين الجائرة سنة ١٩٢٦ التي كبّل بها الصحافة والنشاط الحزبي. عيّن في جانفي/كانون الثاني ١٩٢٩ مقيمًا عامًّا بالمغرب. كان وراء سياسة التنصير بسنّ الظهير البربري في ماي/أيار ١٩٣٠ وتشجيع المبشّرين على بثّ الدعاية للدين المسيحي. نقل من المغرب سنة ١٩٣٢.

موجود؟ إنّما تنفخون في حديد بارد. وبالفعل لم يلبّ نداء هذه الجمعيّة من المسلمين إلاّ نفر قلائل جدًّا حتّى أصبحت من الجمعيّة في خجل عظيم.

نعم افتخرت بأنك أنت كتبت لهم وهنّأتهم.

إلاّ أنه في كلّ مصر ما جاءهم إلاّ مكتوب من ابراهيم بك دسوقي أباضة[1]. كتبت إلى أحمد زكي باشا[2] فلم يصنع شيئًا. نعم كتبت إلى البرانس عمر طوسون[3] فكتب لهم كتاب شكر معه خمسة جنيهات جزاه الله خيرًا. أفلا يمكنك يا سيِّدي الأخ أن تكالم في هذه المسألة الإخوان السيِّد رشيد وأحمد زكي باشا وعبد الحميد بك سعيد وعبد الرحمان بك[4] عزّام وغيرهم من ذوي النجدة وأن تطلعوهم على كتابي هذا ليعلموا تفاصيل المشروع؟ أمّا أحمد زكي باشا فقد كتبت له من قبل وفصّلت، فلا كتب لهم ولا أجابني. كتبنا إلى الجزائر وأجاب اثنان أو ثلاثة فقط.

أمّا في سوريا والعراق فإنّي برغم أشغالي التي لا توصف لكثرها تراني أكتب إلى هذا وإلى ذاك وأبيّن لهم وجوب إجابة هذا النداء الذي لا يكلّفهم شيئًا. وقد أمكنني إقناع اثنين أو ثلاثة في فلسطين وواحد في حماه وبضعة عشر شخصًا في حلب وواحد في عدن وأشخاص في البصرة.

---

(١) ابراهيم دسوقي أباضة (١٨٨٢ ـ ١٩٣٥)، أديب مصري. كان من أعضاء مجلس النوّاب بمصر أكثر من مرّة، وولّي الوزارة خمس مرّات، واشتغل بالمحاماة. نشر مقالات في سياسة مصر الوطنية ، له كتاب "حديقة الأدب".

(٢) أحمد زكي باشا (١٨٦٧ ـ ١٩٣٤)، أديب وبحّاثة مصري، من كبار الكتّاب. ولد بالإسكندريّة وتخرّج بمدرسة الإدارة والحقوق بالقاهرة، وكان درس الإنكليزية والإيطالية. عيّن مترجمًا لمجلس النظّار فسكرتيرًا ثانيًا ثمّ أولاً. منح لقب (باشا) واتّصل بالمستشرقين في المؤتمرات الدولية، وترجع له فكرة إحياء الكتب العربية فتولّى تصحيح ومراجعة عدّة مخطوطات طبعتها الحكومة المصرية. جمع مكتبة ضخمة وقفت على دار الكتب المصرية، من كتبه: (السفر إلى المؤتمر) و(موسوعات العلوم العربية) و(أسرار الترجمة) و(قاموس الجغرافية القديمة) و(الدنيا في باريس).

(٣) البرانس عمر طوسون (١٨٧٢ ـ ١٩٤٤)، مؤرّخ وباحث من الأمراء السابقين بمصر. مولده ووفاته بالإسكندريّة، درس بسويسرا، أتقن إلى جانب العربية التركية الفرنسية والإنكليزية. غير متقيّد بتقاليد أسرته، ساعد الحركة الوطنية المصرية بماله وقلمه. ساعد الحركة الوطنية في طرابلس خلال الغزو الإيطالي سنة ١٩١١. كان من أعضاء المجمعين العلميين بمصر ودمشق وعضو الجمعيّة الجغرافية بمصر، ألّف عديد الكتب التاريخية أهمّها: (البعثات العلمية في عهد محمّد وعبّاس وسعيد) و(يوم ١١ يولية ١٨٨٢) و(الصنائع والمدارس الحربية) و(صفحة من تاريخ مصر والجيش البرّي والبحري) و(أعمال الجيش البرّي والبحري) و(أعمال الجيش المصري في المكسيك) و(كلمات في سبيل مصر) و(تاريخ خليج الإسكندريّة القديم وترعة المحموديّة) و(المسألة السودانية).

(٤) عبد الرحمان عزام ولد بالجيزة بمصر سنة ١٨٩٣، أتمّ دراساته العليا بلندن كان نائبًا بالبرهان المصري، أصبح أول رئيسًا لجامعة الدول العربية سنة ١٩٤٨، كانت له صلات قويّة بالأوساط السياسية العربية.

وكلّ هذا كنت فيه كمن ينحت في الصوّان ولا أدري ممّا يخافون! فإنّه ما من أحد يتقاضاهم مالاً إلاّ من أراد من نفسه أن يبعث بشيء زهيد مصروف بريد، ولا تؤاخذني يا سيّدي على هذا التطويل وأرجو منك العمل بحسب عادتك والتكرّم بالجواب والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

أخوكم شكيب أرسلان

9, Avenue Hentsch, Genève

رسالة رقم ٥ **القاهرة، في ٤ ذو الحجّة ١٣٥١ (٣ مارس ١٩٣٣)**

حضرة صاحب العطوفة الأمير الجليل حفظه الله:

تلقّيت الرسالة الفيحاء مغتبطًا بدعوتك إيّاي لمؤازرة جمعيّة البيت العربي في إسبانيا وكان بيانك الفيّاح عنها وعن انتعاش الروح العربي في ذلك الفردوس مؤثّرًا للغاية بصورة جعلتني أغامر بتجاربي وأعدل عن التردّد وأتقدّم بالمساعدة للجمعيّة. رغم ما قدّر في النفس من الحذر. فكم خُدعنا بالجمعيّات الأجنبية وكم كانت تبديه لنا من قول معسول وقصد مغرٍ ولمّا بلوناها تكشّفت لنا عمّا كانت تضمر من مكائد وخدع. وكم عانينا في كفاحها ووقف تأثيرها أضعاف ما لا عنينا به من الدعاوة لها، ولم نتخلّص من شرّها إلاّ بشقّ الأنفس. لذلك توقّفتُ في أول الأمر عن الاطمئنان إلى دعوة الجمعيّة وقلت في نفسي هذه من تلك ولا فائدة في إعادة التجربة وتكرار الدرس وأذهان الأوروبيين قاطعة بأنّ المسلم سليم النيّة سلس الانقياد سهل الانخداع، وكثير ممّا خدعوه ووضعوا مقابض أيديهم الحديدية حول عنقه ولكن داخل قفّاز من حرير.

والمسلم تجوز عليه الخديعة ولا ينتبه لها ولو تكرّرت. لهذا وأمثاله كنت أوثر الحذر من قبول كلّ دعاويه لأيّ جمعيّة أجنبية ولو كانت تدعو إلى الخير وتتظاهر بالتقوى فإنّها لا تستمرّ على ذلك إلاّ ريثما يطمئنّ إليها (...)[1] ثمّ تلتوي عليهم وتنقلب له أداة استعمارية مهلكة ومهادرة الأوروبي لا تظهر إلاّ في مثل هذه الحالة من التنكّر والتقلّب.

والأجدر بنا ونحن كما نحن أن لا نتّصل بهم في عمل إلاّ وأعيننا متطلّعة في أنحاء الأسرار من نفوسهم حتّى إذا اطمأننّا إليهم قارضناهم لو كان على الوفاق والإخلاص ومضينا معهم في التعاون على بصيرة، وإن كان هناك ما نحذره انسللنا منهم انسلال الشعرة من العجين دون إسراف في النجاح أو الخصومة.

---

(١) غير واضح بالمخطوط.

تفاديت من ذلك كلّه بيانك المغري فاعتمدت المضيّ في المساعدة وتوكّلت على الله.

يدلّك على إعجابي بما كتبت إدماجي له في حديث لي مع الجرائد دافعت به عن الجمعيّة شبيه ناقد يتستّر وراء (ح) نشرها في (الجامعة الإسلامية) و(الجهاد) ثمّ ثنيته برسالة إلى مسيو رافلس[1] أجيبه عن كتاب أرسله إليّ في أكتوبر الماضي عرضت فيه الحالة السياسية في المشرق حتّى تكون منها التريّث في العمل لإيجاد وكالات عن البيت العربي وهي من الأسرار التي لا أودّ إفشاءها لولا كتابك. وإليك ما كتبته إليه في هذا الشأن:

في الشرق اليوم نزاع عنيف وقد يتحوّل هذا النزاع إلى خصومة وشقاق بين الأفراد والجماعة ولست أذيع سرًّا إذا كاشفتم بأنّ الأشقّاء أنفسهم قد يتنافرون ويتعادون بتأثير الحزبية فكيف نستطيع والحالة تلك تأليف الوكالات من رجال تغمرهم الحزبية من الرأس إلى القدم والحزبية في الشرق هي الكلّ في الكلّ. في مصر خمسة أحزاب متشاكسة متنافرة:

- حزب الوفد: (وهو حزب الأمّة الساحقة) الذي تناويه سياسة الاحتلال الإيجابية وتطارد زعماءه وكتّابه.

- حزب الأحرار الدستوريين وهو جزب أقلّية صغيرة.

- وحزب الوطنيين وهوة أضعف الأحزاب في مصر يضمّ بين رجاله أفرادًا من أذكياء المحامين وهو سلبي السياسة.

- حزب الاتّحاد: وهو مؤلّف من طائفة قليلة من قدماء الموظّفين والوجهاء يؤيّدون الفكرة الملكية.

- وحزب الشعب: وهو يجمع أفرادًا من الانتفاعيين من جميع طبقات الأمّة ألّفه رئيس الوزارة الحالية لتأييد سياسة تنقيص الدستور وإضعاف حرّية الشعب السياسية.

---

(١) رافلس وهو إنريكي دي رافلس. نائب سابق في البرلمان الإسباني والكاتب العام للجمعيّة الإسبانية الإسلامية.

والحزبان الأخيران يساندان الحكومة ويؤلّفان الأغلبيّة في البرلمان. فمن ترون أن نؤلّف وكالة البيت العربي من هذه الأحزاب؟

هل نؤلّفها من الأحزاب المصالحة للحكومة فتقوم علينا قيامة الأحزاب المعارضة، تقاطعها وتتناولنا في جرائدها بالنقد والتجريح وحينئذٍ تتنكّر لنا الأمّة ولن تقوم بعد ذلك قائمة للمشروع لا في مصر وحدها بل الشرق كلّه.

هل نؤلّفها من حزب الأغلبيّة فتتصدّى لنا الحكومة في جملة من تتصدّى لهم من الخصوم والمناوئين، ويخطر لي أنّ مصلحة الجمعيّة في غير ذلك طبعًا. بقيت لنا صورتان ايسرهما أعسرهما:

الأولى: أحزاب الأقلّية وهما الأحرار الدستوريون والوطنيون. أمّا الأحرار الدستوريون فلهم سياسة معيّنة لا يتخطّونها إلاّ بالحساب وهي أن لا يتعاونوا مع أحد في الخارج غير الإنقليز وأمّا الوطنيون فهم لا يتعاونون أبدًا مع الأجانب بعد أن جرّبوا التعاون مع فرنسا يوم كانت له الأغلبيّة الساحقة في مصر فخذلتهم في اتّفاقها مع الإنجليز على مسألة المغرب سنة ١٩٠٤ بعد أن كانت تحرّضهم وتعدهم بمساعداتها إلى النهاية.

الثانية: تأليف لوكالة من أفراد متاجنسين في الفكرة مستقلّين عن الأحزاب وهؤلاء لا يوجدون ولئن وجدوا فهم نقابة لا أمل فيهم ولا رجاء.

الخلاصة أنّ في مصر اليوم حمى سياسة مزّقت وحدتها شرّ تمزيق، وإنّك لترى الأصدقاء بالأمس أعداء ألدّاء لبعضهم اليوم ينظر بعضهم إلى بعض نظرًا شزرًا ولا يلتقون أبدًا ولو في النوادي العامّة ومشارب القهوة، فكيف يجتمعون للتعاون على خدمة المبادئ العامّة المشرّفة والشقاق الحزبي متغلغل فيهم كما وصفنا.

يمكن جمعهم بالترويض والاستدراج ولكن ينبغي لذلك وقت. لهذا وأمثاله ترانا معشر الشرقيين الأجانب عن مصر نحاذر أشدّ الحذر التورّط في المشاكل الحزبية والدخول في غمارها مع عطفنا لمصر وإخلاصنا لقضيّتها واهتمامنا بها جميعًا.

ولا يفوتكم في دراسة أحوال الشرق، والغرائز واحدة، أنَّ الحالة في مصر هي بعينها في جاوة والهند والعراق وسوريا وفلسطين وتونس وهي الأقطار التي نضجت فيها فكرة السياسة القومية.

أمَّا السرّ في حصول الانقسام والتشاكس في تلك الوحدة فمردّه إلى الاختلاف في سياسة التقرّب والبعد عن مماشاة السلطة الأجنبية في البلاد والقاعدة العامّة المتّبعة في ذلك بين شعوبنا المغلوبة على أمرها أنَّ كلّ حزب أو فرد يماشي السلطات الأجنبية ولو كان في الذروة العليا من الإخلاص في الوطنية متّهم. وتشتدّ التهمة وتضعف بنسبة درجات الرضا ارتفاعًا وانخفاضًا.

لذلك فمن المصلحة الانتظار إلى أن تتمّ المشكلة المصرية على أيّ صورة من الصور، يوم تصبح الحالة في مصر عاديّة نستطيع أن نلعب دورًا مهمًّا في مصلحة التقرّب بين العرب والإسبان وما ذلك اليوم عنّا ببعيد.

لم أقصد بالأسباب في شرح هذه الأغراض الصادقة عن العمل التحلّل من مساعدة الجمعيّة، وإنَّما قصدت الوقوف على الحالة السياسية في المشرق ولإقناع الأعضاء الإسبانيين في السعي التدريجي في اكتساب المؤازرين من رجاله. ومع ذلك فسأزوّدهم من يوم إلى آخر بأسماء ضخمة يعتمد عليها من الناحيتين الاقتصادية والسياسية التي إن تحصل لنا التفاهم عن تغيير سياسة إسبانية الحديثة في الريف بصورة ترضي الريفيين أنفسهم، وأظنّ أنَّ المشروع كافٍ لإقناعهم وأرسلت إليهم نسخًا من القوانين التجارية والتقارير ومجموعة قيّمة من مطبوعات المصلحة وفرق التجارة والمعرض، وأغلبها مؤلّف في العربية وبين بعض البيوت التجارية المعروفة في الجزائر وتونس ومصر وفلسطين والعراق والكويت والبحرين والهند، متى بعثوا إليّ كشفًا بالمصانع الإسبانية وما تنتجه من البضائع وطرائقها في البيع والشراء والتحويل وسدّ الآجال وغير ذلك ممّا ينبغي أن يُعلم عند تلك المصانع التي يريدون ترويج إنتاجها في المشرق.

أفعل ذلك احتسابًا بالبيت العربي لا أبغي منهم جزاء ولا شكورًا. وهو عمل قيّم لا شبهة فيه ولا جدالا إلاّ في أنّ الاتّصال المادّي أنفع للطرفين بكثير من الاتّصال الأجوف الذي لا يحسّ به إلاّ أفراد قليلون. أليس الأمر كذلك يا أمير ونحن مقبلون على مستقبل رهيب سيسود فيه كفاح المقاطعة السلبية للمستعمرين وهو أشدّ عليهم وأنكى من حروب الواجهات لا سود فيه إلاّ من تنفق على الشراء منه.

لعلّك قرأت شيئًا عن الحملة الحمقاء التي قام بها أحد المتسرّعين على الشيخ عبد الحيّ الكتاني[1] في بعض الصحف، ولو سكتوا عنه أثناء وجوده بمصر لوقع في الفخ وأظهر المقصد الذي أوفد لأجله إلى المشرق من قبل الأمّ الحنون. وهو الدفاع عن سياستها في المغرب، سياسة التنصير والفجائع ولكنّه عوجل فأمسك واستغلّ الموقف له والحمل والتسرّع شأنهما إفلات الجريمة والمجرم. وأراك لم تنصف اشتياق المغاربة باتّهامك إيّاهم والكاتب غيرهم وربّما كان من أصدقائك الأقربين والأمل أن لا تقطعوا عنّي رسائلكم ويسرّني دائمًا الوقوف على آرائكم وأخباركم. وختامًا تفضّلوا يا مولاي بقبول تقديري وإخلاصي.

أنتهز فرصة إقبال عيد الأضحى لأهنّئكم به أسأل الله أن يعيدكم عليه بالخير والسلامة وأن يبقيكم لأمثاله تستقبلون أعيادًا منها عيد استقلال العرب.

أرفع سلامي وتهنئتي إلى الصديق الكريم إحسان بك الجابري فإنّي لم أزل أذكر له تلك الأيام الطيّبة التي قضيناها تحت ظلال دوح الكرمل.

عبد العزيز الثعالبي

---

(١) عبد الحيّ الكتاني (١٨٨٨ ـ ١٩٦٢)، عالم بالحديث ورحّالة مغربي. ولد بفاس، وكان منذ نشأته على غير ولاء للأسرة العلوية واعتقل سنة ١٩٠٩. ولمّا فرضت الحماية الفرنسية على المغرب، أصبح مواليًا لها. تعرّف على رجال الفقه والحديث في مصر والحجاز والشام والجزائر والشام والجزائر وتونس وعاد بعديد المخطوطات. ضُمّت مكتبته الضخمة إلى خزانة الكتب العامّة في الرباط بعد الاستقلال. جاهر بالبيعة لابن عرفة (صنيعة الفرنسيين) بعد نفي الملك محمّد الخامس عن عرشه وبلاده. ولمّا استقلّ المغرب كان الكتاني في باريس فاستمرّ إلى أن مات بها.

رسالة رقم ٦ جنيف، في ١٨ ذي الحجّة ١٣٥١ (١٩٣٣/٤/١٤)

سيّدي الأخ الأستاذ أيّده الله:

تناولت الرقم الكريم بعد أن كنت اطّلعت على ما كتبتموه في (الجهاد) بشأن البيت العربي في إسبانيا وجميع ما كنت أطمع فيه من عضدكم لهذا المشروع قد جاء في مقالتكم الوافية الشافية بحيث يكون هذا الموضوع قد شبع دعاية وقد عزّزت مقالتكم بمقالة بعثت بها إلى الجهاد منذ أسبوع فلا أراني محتاجًا الآن إلى التكرار، وغاية ما أقوله هو أنّ سياسة الحكومة الإسبانية إلى حدّ الآن لم تتغيّر في الريف وأنّ بوليس تطوان هو طوع إشارة فرنسا ربّما أكثر من إشارة إسبانيا نفسها ومن أيام ساقوا السيِّد محمَّد داود[1] إلى دائرة البوليس وفتّشوا بيته وأنذروه بعدم قبول الجرائد الإسلامية بأجمعها. وما فكّ نفسه منهم إلاّ بجهد جهيد. وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة جاء الحسن بوعياد من أدباء فاس زائرًا تطوان فخرج البوليس (خمسة أشخاص) وحاولوا منعه من دخول البلدة. ولمّا علموا أنه إنجليزي التابعة سمحوا له بدخولها والمبيت فيها ليلة واحدة ولكنّه كان طول الوقت محاطًا بالبوليس بصورة علنية، وقد منعوه من إلقاء محاضرة كان يريد إلقاءها في نادي الشبّان العرب في تطوان ومن هذا وأشباهه يعلم الإنسان أنّ إسبانيا سائرة مع فرنسا على طول الخطّ لا من أجل كونها دولة استعمارية، فإنّ إسبانيا في واد والاستعمار في واد آخر وكثير من الإسبانيول يريدون ترك الريف بتاتًا ولكن التعصّب اللاتيني لم يزل يجعل الإسبانيول مبالين إلى ترويج سياسة فرنسا وتكوين جبهة واحدة معها بإزاء الإسلام. وأضف إلى ذلك شدّة تخوّفهم من دسائس فرنسا في وسط إسبانيا على حين الجمهوريّة الإسبانية حديثة العهد لا تزال في المهد. فهل هذه أسباب تدعونا إلى ترك العمل في الجمعيّة الإسبانية الإسلامية وإلى اليأس من إصلاح شيء هناك؟ لا أظنّ ذلك بل أظنّ عكسه وأن مضيّ إسبانيا الرسمية في مماشاة فرنسا بسياستها المغربية ليس بسبب أن نقنط ونترك التعضيد لحزب ضعيف في إسبانيا

---

(١) محمَّد داود من المناضلين الأوائل في المغرب والمبادرين في أهمّ الحركات السياسية الأولى.

الآن، لكنه يجوز أن يصير قويًا يومًا من الأيام وعلى كلّ حال فوجود حزب كهذا إذا وجد من العالم الإسلامي عضدًا محسوسًا فإنّه يقوى وتصير له حجّة على الحكومة الإسبانية بحيث إذا أرادت الإفراط في مماشاة فرنسا وجدت من الإسبانيول من يقول للحكومة إنّ عملك هذا مضرّ بسياسة إسبانيا واقتصاديّاتها.

أمّا وجود عضد حقيقي في العالم الإسلامي للجمعيّة الإسبانية في مجريط فهو الأمر الذي من دونه خرط القتاد. أنتم تقولون إنّ اختلاف الأحزاب في مصر هو من موانع العمل في هذه السبيل لأنه مجرّد ميل أناس من أحد الأحزاب إلى تعضيد إحدى السياسة بصرف النظر عمّا إذا كانت مفيدة أم غير مفيدة. ولكنّي لا أرى هذا وحده هو السبب الوحيد بل السبب أكثره هو استخذاء النفوس وضعف الهمم واستيلاء القنوط فالعالم الإسلامي يعيش بدون أمل تقريبًا وهو يهمل أعظم المشروعات الحيوية التي كان ينبغي أن تكون محور عمله ليلاً ونهارًا فلا عجب بعد ذلك إذا كان لا يهتمّ بتأييد الروح العربية في إسبانيا، وهي مسألة من الدرجة الرابعة أو الخامسة. إنّني أنا دافعت هؤلاء القوم كثيرًا حتّى يعفونني من الدخول في هذه الجمعيّة لا لشبهة منّي في إخلاصهم أو لظنّ منّي بأنّ هناك دسائس. كلاّ بل لأني كنت عالمًا بصحّة ما كان يقوله لهم عذّالهم من الفرنسيين وهو أنكم تنفخون في غير ضرم وأنّ العالم الإسلامي ليست فيه الحياة التي تظنّونها حتّى يجيب لكم داعيًا. كنت أخشى أن نبدأ بالعمل فنفشل ونُفتضح ولهذا كنت متردّدًا في الدخول وما أقنعني به إلاّ أمران أحدهما الحياء من فئة الإسبانيول هذه القائلين بالنزعة العربية والثاني مكارمة إخواننا مسلمي المغرب الذين هم دلّوا هؤلاء الإسبانيول علينا وقالوا لهم إنّ دخولنا في المشروع ضروري لنجاحه. فنحن لذلك نعمل بقدر إمكاننا متوكّلين على الله، وأنتم تعلمون ما نعلمه نحن وزيادة، ولكنّكم تعلمون أيضًا أنّ اليأس لم يخامر نفسكم العزيزة. يا سيّدي الأخ قضيّة الكتاني لم تكن تحتاج إلى هذه الضوضاء ولن يأتي من هذه الضوضاء فائدة وهذا ما نظرت إليه من أول الأمر. الشيخ الكتاني لا أعرفه ولا يعرفني وإنّما عرفت منهم خاله السيّد جعفر

الكتاني. كنت اجتمعت به في المدينة المنوّرة وكنت أسمع أنَّ الشيخ عبد الحيّ هذا موال لفرنسا وأسمع أنَّ فرنسا تعامله بصورة مستثناة، ولكنّني كنت أشعر أنَّ الصداقة بينه وبين فرنسا إنَّما هي مداجاة ومداهنة فقط، ففرنسا تداريه لكونه ذا نفوذ عظيم بين البربر بسبب الطريقة الكتانية[1] وهو يداري فرنسا لأجل مصالحه المادّية وزواياه وأوقافه وما شبه ذلك. وأنا كنت سمعت من أناس من فاس يكرهون الكتاني أشدّ الكره لأنَّ زوايا الكتاني بعد صدور الظهير البربري[2] بقيت مفتوحة وبقي تعليم القرآن والعربية جاريًا فيها على حين أنَّ تعلّم العربية كانت فرنسا قد منعته في سائر قرى البربر ـ فأنا كنت أقول: إذا كانت مدارة الكتاني لفرنسا لأجل نتيجة كبقاء التعليم الإسلامي جاريًا في قسم من بلاد البربر، فلا يكون في تلك المداراة ضرر، بل منع حفظ القرآن وتعلّم العربية هو أعظم من ضرر مصانعة الكتاني للفرنسيين، وإن كنت أعلم أنَّ الكتاني في أثناء هذه المصانعة يرتكب ما يضرّ بكثير من مصالح المسلمين. وبينما كنت أشخّص موقف الكتاني بهذه المثابة وأعلم أنه رجل لا يبالي كثيرًا بالمبادئ العمومية في سبيل مصالحه الخاصّة، لا سيَّما إذا جاءت مترافقة مع مصلحة يقدر أن يؤوّلها بمصلحة خاصّة هي في الواقع مصلحة عامّة إذا جرى حادث أوجب أن أتعرّف بالكتاني، وهو أنني منذ شهر ونصف بينما أنا في منزلي جاءني تلفون من أحد فنادق جينيف فعلمت أنَّ أحد المغاربة يتكلّم معي وقال لي إنَّ السيِّد عبد الحيّ الكتاني يريد أن يكالمك فقلت أهلاً وسهلاً وإذا بالسيِّد المشار إليه يحيّيني ويقول إنه قدم إلى هنا وأكثر السبب هو لأجل مشاهدتي وهو يريد أن أعطيه عنوان المنزل حتّى يأتي هو والجماعة الذين معه لزيارتي. فأنا يا حضرة الأستاذ من الناس الذين، ولله الحمد، عندهم حياء فضلاً عن المعرفة بأصول الاجتماع فلمّا سمعت منه هذا القول قلت له: إنَّنا نسمع بعلمكم وفضلكم من قديم وإنَّنا نكون سعداء بالمعرفة بالوجوه وأرجو أن تبقى في مكانك حتّى آتي أنا وأزورك لأنَّ القادم عندنا يزار كما لا يخفى، وبعد ذلك تشرّفون محلّنا وذهبت

(١) الطريقة الكتانية: طريقة صوفية بالمغرب، أسّسها محمّد الكتاني في نهاية القرن التاسع عشر.

(٢) الظهير البربري وهو الظهير الذي صدر بتاريخ ١٦ ماي/أيار ١٩٣٠ وبموجبه يخرج البربر في المغرب عن القضاء الشرعي بها.

وسلّمت عليه وكان مسرورًا جدًّا بكوني بادأته. ثمَّ بعد أن جلسنا نحو نصف ساعة جئنا وإيّاهم إلى محلّهم الصغير وشربوا عندي الشاي وألححت كثيرًا عليهم في البقاء تلك الليلة والسفر نصف الليل إلى روما فاعتذروا بأنَّ السفر ليلاً مزعج ولذلك يكتفون بهذا الاجتماع الذي طال نحو ساعتين أو ثلاث، ثمَّ رافقتهم إلى جمعيّة الأمم ثمَّ إلى المحطّة. أنا لا يمكنني أيها الأستاذ أن أعمل خلاف هذا. ولا يوجد عربي، فضلاً عن عربي مسلم، يأتي إلى جنيف ويصادفني إلاَّ وأدعوه وأشغل نفسي به فكيف لا أعامل بهذه المعاملة جماعة المسلمين من أشراف المغرب وأحدهم من كبار العلماء والمحدثين ومن زملائنا في المجتمع العلمي العربي؟ وقد قصدوا زيارتي بل قالوا إنّهم جاؤوا إلى جنيف من أجلي. فأمَّا سياسة الكتاني فلم أكن أجهلها وفي أثناء الحديث أفهمته ما يقال عنه وقلت له بعد أن علمت منه أنه قاصد مصر فالحجاز فالشام فالعراق فالهند: إنَّني عارف جيدًا أنك لن تتكلّم بسوء في حقّ فرنسا خوفًا من أن يصل ذلك إليها فتنتقم منك ولكنّي، لا أعذرك إذا كنت تنوي الدفاع عنها في قضيّة الظهير البربري، وفي الحال أجابني: إنَّني لن أدافع أصلاً وأنت لا تعرفني فكن على ثقة بأني لن أقول كلمة مضرّة في الإسلام. وأبدى وأعاد في هذا المعنى كثيرًا وقال إنَّه يداري الفرنسيين ويدارونه. وذكر أنَّ البربر الذين يتّبعون الطريقة الكتانية هم مليون ونصف نسمة وأنه لو قام يعاكس فرنسا لحرمت هذا الجمع الغفير كلّ من التعليم الإسلامي وهذا ما لا يظنّه موافقًا لمشربنا: فقلت له: هل زواياكم مفتوحة والتدريس العربي جارٍ فيها؟ قال: بدون شكّ وما عليك إلاَّ أن تسأل.

هذا ما كان من جهة ما ذكره من أسباب مداراته لفرنسا وأنا كنت أعلم أنه لا يتجرّأ على مواجهتي إلاَّ بعد أن يكون تكلّم مع الفرنسيين أو مع ابن غبريط مثلاً وبيّن له أنه سيأتي إلى جنيف ويقابلني وأنَّ المصلحة تقتضي بذلك. فقلت في نفسي: لعلّي أقدر أن أحمله على إلقاء بعض نصائح للفرنسيين إذا كنت أقولها أنا لا يصدّقونها لاعتقادهم بشدّة عداوتي، أمَّا إذا برزت من فمه هو فيجوز أن تؤثّر

فيهم لاعتقادهم بصداقته لهم. وعلى كلّ حال لا ضرر في هذه النصائح فإن أبلغهم إيّاها وأثر شيء منها كان خيرًا وإن لم يبلغهم إيّاها أو لم يبلغها بتمامها خوفًا منهم أو أبلغهم إيّاها ولم يعلموا بها فلا أكون خسرت شيئًا، الإنسان يبذر ألف حبّة ويقنع أحيانًا بنبات حبّة واحدة من ألف. قلت للكتّاني: يا حضرة السيِّد ينبغي أنَّ الفرنسيين يعلمون أنَّ الموقف السياسي الحاضر هو غير ما استمرّ من نهاية الحرب العالمية إلى الآن. فألمانيا قد نهضت وكاشفت بذات نفسها وقامت تطالب بأمور لن ترضى بها فرنسا. وقامت إيطاليا من جهة ثانية تأخذ بيدها وكلتاهما متّفقتان على عضد شوكة فرنسا والدول التي في شرقي أوروبا تمشي وراء فرنسا بينها وبين ألمانيا وإيطاليا والمجر والبلغار معضلات لا يمكن حلّها إلاَّ بالسيف.

وهذا كلّه يؤكّد قدوم الحرب علينا إن لم يكن في سنين قلائل فربّما يكون في عشر سنين أو خمسة عشرة، والناس مع ذلك حتّى رجال الحكومات يرون الحرب قريبة أكثر جدًّا ممّا قلنا، فماذا تريد فرنسا يا حضرة السيِّد أن تعمل بإزاء هذا الموقف الجديد؟ في الحرب الكبرى طاف الفرنسيس على التونسيين والجزائريين والمراكشيين يقولون لهم: هذه هي الحرب الأخيرة وهذه هي التي ستحرّر بها الأمم وأنتم من الجملة فكونوا معنا حتّى ندفع خطر ألمانيا وبعد ذلك يكون لكم استقلالكم وإن شئتم أن تبقى بيننا وبينكم علاقات سياسية واقتصادية على شكل محالفة فيكون ذلك لكم. وما زالوا يقولون هذه الكلمات للمسلمين طيلة الحرب فساقوا منهم إلى ميدان الوغى تسعين ألفًا من هؤلاء المسلمين من تونس ومائتين وستّين ألفًا من الجزائر وعددًا لم أعرف مقداره من المرتزقة في المغرب وقتل من هؤلاء المسلمين ومات ٤٥ ألفًا من تونسيين و٦٢ ألفًا من الجزائر وبعد أن وضعت الحرب أوزارها نسي الفرنسيون جميع ما كانوا يقولونه للمسلمين وظهرت منهم غطرسة أكثر ممّا كان قبل الحرب وما عادوا يكتفون بالاعتداء على أملاكهم وأراضيهم بل مدّوا يدهم إلى الدين الإسلامي واللغة العربية يحاولون مباشرة قلعها من شمال أفريقيا، فإذا جرت حرب ثانية وهي آتية لا ريب فيها فماذا تصنع فرنسا؟ هل تأتي مرّة ثانية

فتخاطب المسلمين الخطاب نفسه وتحاول أن تخدعهم ثاني مرّة؟ إنَّهم لا شكّ أصبحوا لا يصدّقون شيئًا من مواعيد الفرنسيين (لا يلدغ المؤمن من جُحْرٍ مرّتين). أفلم يكن الأولى بفرنسا أن تتّخذ في شمالي أفريقيا سياسة جديدة بإزاء مسلمي تونس والجزائر ومراكش وتعمل منهم ممالك أشبه بالدومنيّون المرتبطين بإنجلترا وتضع بينها وبينهم روابط وتعقد معاهدات كما بين أستراليا وكندا بإنجلترا مثلاً.

لا شكَّ أنها إذا فعلت هذا آمنت على مستقبل المغرب حتّى لو فرضنا أنَّ ألمانيا وإيطاليا تغلّبتا على فرنسا وذلك لأنَّ مسلمي شمال أفريقيا بعد أن يكونوا حصلوا على استقلالهم الداخلي وصاروا كالدومنيّون يصيرون حلفاء طبيعيين لفرنسا. وإذا رجعت دولة كبيرة عليهم يقاومونها بأجمعهم، ثمَّ إنّهم في حرب أوروبية يرسلون جيوشًا إلى فرنسا بدون استثقال لأنهم يكونون بذلك مدافعين عن أنفسهم فضلاً عن حليفتهم. فأمّا إذا بقيت الحالة على ما هي عليه الآن فإنَّ فرنسا إذا انهزمت في حرب أوروبية خسرت المغرب بأجمعه من السنجال إلى طرابلس الغرب. وذلك لأنَّ مسلمي شمال أفريقيا لن يحزنوا على ذهاب دولة قاهرة لهم ولن يدافعوا عنها إلاَّ مرغمين، ومتى حلّ بها الضعف لن يدافعوا أصلاً بل انضمّوا إلى أعدائها، فقد تكون ألمانيا هي التي ستضع يدها على تلك الأقطار أو تكون إيطاليا أو تكون الاثنان معًا بتقسيم بينهما وكيف كان الأمر فالمسلمون، لن يقاوموا وماذا فارقوا من العزّ في أيام فرنسا حتّى ينتصروا لها. وعليه فتذهب البلاد على فرنسا وعلى أهلها. أفليس الأولى أن ترضي فرنسا بإعطاء هذه الأقطار حكومات مستقلّة كالدومنيّون مرتبطة بفرنسا ارتباطًا سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا يضمن لفرنسا بقاءها ضمن دائرتها؟ أوليس هذه الفكرة خير من الحالة الحاضرة التي قد يكون وراءها خسارة فرنسا لجميع شمالي أفريقية بتاتًا؟

لمّا وصلت إلى هنا أجابني الكتاني: إنَّ فرنسا ترى من انشقاق المسلمين وتخاذلهم وضعفهم ما يجعلها غير مبالية بهم، وإذا كلامك هذا قيل للفرنسيين لا يحفلون به لأنهم أدرى بضعف المسلمين. وقلت له: هذا خطأ من فرنسا وإنّي

أنبّهك إلى أنه قد تأتي حوادث ليست في الحسبان، أكنت أنت تظنّ يا حضرة السيِّد أنَّ عبد الكريم وهو رجل غير معروف من بني ورياغل يقاوم فرنسا وإسبانيا معًا مدّة سنة بعد أن يكون هزم إسبانيا مدّة سنوات، إن هذه الأمور كلّها ممكنة لا ينبغي أن نفرط في احتقار قوّة المسلمين ولا أن نظمن أنهم لن ينهضوا فإنَّ النهضة قد بدأت بينهم ولا بدّ أن تستمرّ فلا حيلة لفرنسا ولا لغيرها بمنع نهضة المسلمين وكلّ ما تحاول إجراءه لأجل تقطيع أوصال الإسلام ومنع تعارفهم وتعاطفهم بعضهم مع بعض ذاهب أدراج الرياح، وقول هانوتو[1] وأمثاله: إنَّ تونس مملكة قطعنا صلتها بمكّة هو كلام فارغ إذ لا توجد قوّة على وجه الأرض يمكنها الحيلولة بين أجزاء العالم الإسلامي. وكم قرأت في جرائد فرنسا من الاعتراضات في أثناء المناقشات المتعلّقة بالظهير البربري مآلها أنَّ هذه مسألة متعلّقة بمسلمي المغرب ولكن التحريك فيها آتٍ من المشرق. وما مدخل مسلمي المشرق بأمور مسلمي المغرب؟ فهذا أيضًا هذيان محمومين. لقد قلت لكثير من رجال الفرنسيين ومنهم المسيو بونصو وكتبت في مجلّتي (لا ناسيون آراب)[2] بالصراحة أننا نحن مسلمي الشرق لسنا بأوصياء على مسلمي المغرب الراشدين مثلنا فلذلك لا نزعم أننا نعطيهم "بوروغرمًا" سياسيًا فهم أدرى منّا بما يجب أن يعملوه من جهة السياسة ولكن متى وصلت المسألة إلى الاعتداء على الدين الإسلامي واللغة العربية فإنّنا لا ننتظر احتجاج مسلمي المغرب حتّى نرفع صوتنا ونقاوم هذا الاعتداء بكلّ قوّتنا إلخ. فالإسلام والعروبة حقّ عمومي لنا جميعًا.

كلّ هذا كنت أقوله للكتاني مع أشياء كثيرة لا يلزم إعادتها وذلك على أمل أن يعيده على أصحابه الفرنسيين، إذ كنت رجّحت أنه ما جاء لمقابلتي إلاَّ وقد أخبرهم بما ينويه ولم أكن أقول له: أرجو منك أن تقول هذا للفرنسيين. بل كنت أقول هذا الكلام كحديث أؤاخذ به الفرنسيين على سياستهم العوجاء فهو إن شاء

---

(١) هونتو: انتروبولوجي وعالم اجتماع فرنسي.

(٢) مجلّة (الأمّة العربية) عدد ٨ و٩ سبتمبر - أكتوبر ١٩٣١، ص. ٣٢ Une campagne de mensonges.

يقدر أن يعيده وإن لم يشأ فذلك له. وهو من ذلك لزم السكوت التامّ سوى هذه الجملة التي قالها في باب افتراق المسلمين وضعفهم وأنَّ فرنسا لا تحسب لهم حسابًا.

ثمَّ قلت لهم شيئًا آخر وهو بيت القصيد: يا حضرة السيِّد إنَّني اتّصلت بمعلومات وثيقة بأنَّ مقامات عليّة جدًا في فرنسا قد طلبت من بعض شبّان المسلمين عمل دعاية مهمّة في العالم الإسلامي ضدّ إيطاليا وتبيين فضائع هذه في طرابلس بكرّة جديدة تزيد بغضاء المسلمين لإيطاليا وقد استكتبوا جريدة (مغرب) الفرنسية العبارة فصلاً ضدّ إيطاليا ولكن الشبّان القائمين بتحرير (مغرب) بالاشتراك مع بعض زعماء "السوسياليست" قالوا: إنَّنا نحن لا نحبّ إيطاليا وإنَّنا سنشهّر بأعمالها ولكنّنا في الوقت نفسه غير شاكرين أعمال فرنسا ولا نجد بين الدولتين كبير فرق. وكذلك أنا متّصل بمعلومات من جهة إيطاليا تدلّ على كونها تبثّ دعاية ضدّ فرنسا والمنافسة شديدة بين الدولتين والفرنسيين في غاية التخوّف اليوم من الطليان فقل لي بعيشك أيها السيِّد كيف تطمع فرنسا أن تحمل المسلمين على بثّ دعاية ضدّ إيطاليا مع استمرارها على أعمال بحقّ المسلمين تقرب من أعمال إيطاليا وكيف يمكن الجمع بين الضدّين؟ تريد فرنسا من المسلمين أن يمدحوها وأن يشهدوا لها بحسن معاملتها لهم ومن يقدر أن يقول إنّها تحسن معاملة المسلمين؟

ثمَّ قلت له أنا منظور لي في فرنسا بعين العداوة الشديدة، كلّ يوم تقريبًا أقرأ كلامًا بهذا المعنى ويقولون إنِّي من ألدّ وأشدّ أعداء فرنسا. والحقيقة خلاف ذلك، بل أنا أريد تقارب فرنسا والعالم الإسلامي أكثر من كلّ إنسان. ولكن هذا التقارب لن يكون باستبعاد فرنسا للمسلمين، فالمسلمون بشر كغيرهم وأصحاب ماضٍ مجيد ولا يمكنهم أن يقبلوا إلى الأبد هذه المعاملات المهينة، فإذا كانت فرنسا تترك سياسة احتقار المسلمين وتعدل عن قضيّة تنصير البربر وعن انتزاع أراضي المسلمين من أيديهم وتعطي شمالي أفريقيا نظامًا أشبه بنظام الكندا مع إنجلترا فنكون جميعًا حلفاء لفرنسا ونقاتل من قاتلها ونوالي من والاها. وأنت تعلم ماذا عملت أنا بحقّ إيطاليا برغم صداقة سابقة بيني وبين موسوليني، وقد بقيت مدّة من الزمن أراعي

حقّ هذه الصداقة وأتجنّب الحمل على إيطاليا ولكن لمّا طفح الكيل وعيل الصبر نزلت إلى الميدان وحرّكت العالم الإسلامي بأسره برغم ضعفي وعجزي، كلّ هذا محافظة على شرف الإسلام وحقوق المسلمين. فكيف تريد فرنسا أن نسكت لها على مناكير أعمالها اليومية بحقّ المسلمين ممّا أنت لا تقدر أن تنكره وكلّما نصحناهم ونهيناهم يكون جوابهم: أنت عدوّ لفرنسا والحقيقة لست عدوًّا لفرنسا ولكن إذا كان دفاعي عن المسلمين يجعلني عدوّ لفرنسا أيش يصير؟[1] أنا لست نازلاً إلى هذا الميدان وخائف من تهديد أحد أنني معلن العداوة لفرنسا وانقلترا وإيطاليا وتركيا والبلشفيك في وقت واحد. وكلّ ذلك لاعتدائهم على الإسلام والمسلمين وتراني أنام بملء جفوني ولا أبالي بقوّة هذه الدول العظام لا لأنها دول لا يجب أن يخشى الإنسان سطوتها، بل يكون من الجنون الاستخفاف بواحدة منها فضلاً عن الاستخفاف بها جميعها، بل أنا غير مبالٍ بعداوتها لأمر واحد وهو أني أخدم قضيّة ديني وقومي ولا يهمّني ما لقيت في سبيلها.

كلّ هذا وأكثر منه سردته على الكتاني هل يقول الكتاني هذا الكلام كلّه للفرنسيين، هل يقول بعضه، هل يكتمه بأجمعه عنهم؟ الجواب لا أعلم ولكنّني زرعت هذا البذر فإن نبت منه شيء فذلك وإلاّ فما الضرر؟ قصدت أن يفهم الفرنسيين أنّ المسلمين غير غافلين عن تغيير الموقف السياسي العامّ وعن منافسة إيطاليا لفرنسا في هذه المدّة بصورة خارقة للعادة. ولم أقتصر على الكتاني في تبليغ الفرنسيين هذه المعاني بل كلّ يوم تقريبًا لنا مجالس مع أناس منهم أو من المتّصلين بهم نحكي فيه هذا الكلام. وإنّ كثيرًا من زعماء السوسياليست هم موافقون لنا تمامًا على هذه الآراء ونجتمع بهم ونكاتبهم ويكاتبوننا وهم الذين يدافعون اليوم عن مسلمي شمال أفريقيا في كلّ فرصة. ومن جمعة كان لريندويل[2] صديقنا الذي يأتي بعد ثلاثة أيام إلى جنيف ـ موقف عظيم في البرلمان الفرنسي في طلب استقلال

(١) إيش يصير: وهي باللغة الدارجة وتعني ماذا يصبح باللغة العربية.

(٢) رينوديل: من مواليد ١٨٧١. سياسي فرنسي، كان مديرًا لجريدة (الإنسانية) سنة ١٩١٥ إلى ١٩١٨. أصبح نائبًا بالبرلمان إلى سنة ١٩٣٥، ساهم في تكوين التكتّل السياسي (وحدة جان جوريس).

سوريا التامّ بأقرب وقت. وإنَّ جميع السوسياليست بلا استثناء يطلبون لتونس والمغربين الأوسط والأقصى استقلالات داخلية كالدومنيّون. نعم أنت تعلم يا أخي أنَّ الأكثريّة لا تزال في فرنسا نصيرة الاستعمار التامّ بجميع رذائله غير أني لحظت أنَّ موقف ألمانيا الجديد قد وطّأ كثيرًا من نغمة الفرنسيين وقوّى حجّة السوسياليست هؤلاء. فالذي قلته للكتاني هو حديث من جملة أحاديث يقع منّي مثلها كلّ جمعة مع أناس أهمّ من الكتاني، وقد أردت من الجملة استخدامه هو أيضًا في هذه المصلحة لأنه كان التمس منّي أن أكتب بحقّه خيرًا إلى بعض ملوك العرب فوعدته بأنني أكتب حبًّا وكرامة، ولكنّني طلبت منه أن لا يتكلّم بما يضرّ الإسلام ولا سيَّما في قضيّة الظهير البربري وقد وعد بذلك ولا أعني أنني وثقت تمامًا بوعده، ولكنّي أظنّ إلى هذه الساعة أنَّ مقابلته لي عمدًا إنَّما أراد بها إسكات الرأي العامّ الإسلامي عن الطعن به لعلمه بما يضمره له شبّان المغاربة. وكان يجوز أن يكون اعتدل كثيرًا في التعصّب لفرنسا وربّما كنّ كلامه عنها مختصِرًا يذهب إلى التخلّص بما يرضي الفريقين، ولكنّه ما وصل إلى مصر حتّى قامت عليه هذه القيامة وعلم أنَّ شبّان المغاربة غير مقيّدين بخاطري وأني أنا لم أقدر أن أدفع عنه ما كان يخشاه، فلذلك عاد فخالف وعده إليّ وأطلق لنفسه العنان في مديح فرنسا علنًا وأفضى بأحاديث لجريدة (الأهرام) وكذّب فيما سمعت قضيّة الظهير البربري واتّخذ هذه التصريحات يدًا عند فرنسا وأصبح لا يوري ولا يجمجم بعد أن كان، لولا هذه الحملة الخرقاء، مستعدًّا أن لا يصرّح بشيء يؤاخذ عليه. فكما قلتم لي في كتابكم كانت هذه الحملة الحمقاء من أيّة جهة كان مصدرها سببًا لزيادة الضرر ووقع ما كنّا نخشاه وحصل ما عملت أنا لاتّقائه جميع هذه الأساليب من الإكرام والملاطفة. نعم إنَّني ما كتبت بحقّ السيِّد الكتاني تزكية ولا توصية بالمعنى المعروف. وإنَّما كتبت ليتجمعوا به وليتفاهموا معه وآملت بذلك إحياء ما بقي من رشحات عقيدته الإسلامية وحمله على اجتناب أيّ حديث يضرّ بالإسلام، وأنت تعلم أنَّ خدمة هذه الملّة وهذه الأوطان لا تنحصر في القدح والطعن بل القدح والطعن لا سيَّما بالألفاظ القبيحة الجارحة كالتي نعتوا بها الكتاني هما يضرّان أضعاف ما ينفعان.

لقد سردت لك هذه القصّة التي جرت بيني وبين الكتاني لا اهتمامًا بشخص الكتاني إلى هذا الحدّ. فقد كنت لو كانت المسألة متعلّقة بشخصه فقط أكتفي بتلخيصها في صفحة واحدة. ولكنّي أردت أن أشرح لك هذا الموضوع الذي لا أظنّك إلاّ منتبهًا له وهو أنّ الحالة السياسية العامّة في أوروبا عادت كهيأتها قبل الحرب الكبرى وتغيّر موقف فرنسا التي بقيت من خمس عشرة سنة إلى الآن تسير في سياستها سير من لا يعلم لألمانيا وجودًا. فالآن أصبحت مضطرّة أن تعرف لألمانيا وجودًا جديدًا كما كانت قبل الحرب أو أكثر. فنحن المسلمون ينبغي لنا أن نستغلّ هذا الموقف السياسي الجديد وأن نأخذ منه كلّ ما يقدر أن يعطيه وأن لا نضيّع الفرصة. ستقولون لي: إلاّ أنك أنت نفسك في أول هذ المكتوب تشهد بأنّ لا حياة تقريبًا في العالم الإسلامي. والجواب: هذا صحيح، ولكن لا ينبغي لنا أن نيأس ولا أن نزيد الاعتقاد بضعفنا على الحدّ الحقيقي وأننا لو شئنا لأمكنّا استغلال هذا الموقف الجديد، لا سيّما تجدّد عداوة ألمانيا لفرنسا بالانضمام إلى عداوة إيطاليا لها إن لم يكن استغلالاً تامًّا فمقدار غير قليل. وإنّ كثيرًا من الشبّان العرب مستعدّون للنهوض وهم وإن كانوا بتهوّرهم يعطّلون كثيرًا من المصالح فإنّهم بحماستهم ـ يندفعون إلى ما لا يخلو من عمل في قلوب القوم. ولقد أكّد لي شبّان المغرب أنّ الفرنسيين في هذه السنة برغم الضغط الاستعماري المعلوم قد أصبحوا يحسبون للأهالي حسابًا، ويعلمون أنّ الحركة الوطنية بدأت في المغرب مثل تونس بل زيادة. إنّني بينما كنت أستعمل كلّ واسطة لإيصال نصائحي هذه إلى حكومة فرنسا لم أكن أغفل عن إيصال نصائحي إلى حكومة إيطاليا والله يشهد أنني بقيت مدّة أداري إيطاليا لأجل صحبة موسوليني وهذا البشير السعداوي[1] يشهد بأنه طالما كتب لي على إيطاليا وأنا كنت أمدّه بالمعلومات بدون تظاهر ولكنّني كنت أقول له: إنّنا في عداوة مع فرنسا وإنجلترا وتركيا وغيرها فنريد أن نحفظ لنا جنبًا نتقلّب عليه وليس بضروري أن أنزل إلى الميدان علنًا. وما زلت كذلك حتّى طفح الكيل

(١) البشير السعداوي، (؟ ـ ١٩٥٧). مجاهد ليبي من أهل طرابلس، حارب الطليان عمل في الرياض مستشارًا للملك عبد العزيز آل سعود. ورجع في بداية الاستقلال إلى ليبيا، فلم يسترح له الملك محمّد إدريس السنوسي، فانصرف إلى مصر وتوفّي بالقاهرة.

وقت احتلال الكفرة[1] وعلمت أنَّ السياسة بالحسنى لم تثمر شيئًا فكتبنا ما كتبنا في الجرائد وبالكتب الخصوصيّة وشعر الطليان بضرر هذه الحملة. نعم إنَّ هذا الضرر كان يجب أن يكون أعظم ولكن كان بالجملة ضررًا مذكورًا وصارت إيطاليا تخشى تفاقمه، فعند ذلك صار الطليان يراسلونني أملاً باسترضائي وأنا لم يكن عندي جواب سوى جواب واحد وهو أننا لن نسكت عنهم إلاَّ على شرط إعادة الثمانين ألف عربي المنفيين في بادية سرت[2] إلى أوطانهم في الجبل الأخضر وإعادة جميع الزوايا السنّوسية مع أوقافها إلى مشايخها ووضع حدّ لهذه السياسة الغاشمة في طرابلس وبرقة.

وقد كانوا ينكرون هذه الأمور ونحن نجاوبهم أنْ لا فائدة من الإنكار لأنَّ عشرات ألوف من المهاجرين تشهد بها والعالم الإسلامي مقتنع بها وبلاغات إيطاليا الرسمية تؤيّدها. والخلاصة أننا منذ أشهر في أخذ وردّ في هذه المسألة وأخيرًا جاء مأمور كبير إلى جنيف وإلى منزلي رأسًا بعد أن استصحب شخصًا آخر مسلمًا كان هو الواسطة بيني وبينهم، فهذان الشخصان جلسا عندي ثلاث جلسات طوالاً ودار الحديث على ما يجب عمله في طرابلس لأجل رأب الصدع الذي وقع بين إيطاليا والمسلمين. لا أقدر الآن بعد أن صار هذا المكتوب بضع عشر صفحة أن أعيد لك ما جرى من المجادلات بيني وبين هذا الرجل أمام رفيقه المسلم. ولكنّي أقول لك باختصار إنّني أسمعته كلامًا قاسيًا جدًّا تخيّلت بعده أنه سيخرج غاضبًا ولن يعود، ولكنّه ظهر أنه لا يريد أن يعود إلى روما بدون نتيجة. ففي آخر جلسة، وذلك كلّه عندي في البيت، وعدته وعدًا حسنًا وأننا سنبدأ بتغيير السياسة تدريجيًّا وذلك على شرط أن يعيدوا الثمانين ألف عربي إلى أوطانهم وأراضيهم ويردّوا على السنّوسيين زواياهم، ولا عذر له بعدم إجراء ذلك لأنَّ الثورة بحسب إقرارهم هم قد خمدت تمامًا ولم يبقَ من معنى لتشريد الثمانين ألف عربي إلاَّ نيّة

---

(١) احتلال الطليان للكفرة تمّ خلال سنة ١٩٣٠.

(٢) أرض سيرت، وهي أراضي الصحراء الليبية.

استئصالهم من الوجود فالأمّة العربية سبعون مليونًا والمسلمون أربعمائة مليون لن ينقصوا بذهاب ثمانين ألفًا لكن إيطاليا تكون قد زرعت بمحوهم، من الأحقاد في قلوب المسلمين ما لا يمحوه الدهر.

ولقد لحظت أنَّ هذا الرجل عالم بدعاية فرنسا ضدّ إيطاليا إن لم يكن كلّها فبعضها. وأنا بيّنت له أنهم إن كانوا عارفين بهذه الدعاية الواقعة ضدّهم فكيف يتردّدون عن إجابة هذه المطالب العادلة؟ وقد كان الرجل يعتذر بأمرين أحدهما خشونة العسكريين ومعارضتهم في رجوع الثمانين ألف عربي، والثاني خوف إيطاليا أنهم إن رجعوا إلى الجبل الأخضر تعود الثورة فتنقدح من جديد. وكان يقول ما هي الضمانات التي تقدرون أن تعطوها على عدم رجوع الثورة؟ فقلت له من العبث أن نتكلّم في ضمانات رسمية لا نقدر عليها ولا هي في حين محلّ نافعة لكم.

ولكنّنا نقول عقلاء إنّكم إذا أعدتم هذه القبائل إلى أوطانها ورددتهم إليهم أراضيهم ورددتم أراضي الأوقاف السنّوسية حصل ارتياح عمومي ويرضى المسلمون، ونحن عند ذلك نقدر أن نكتب إلى هؤلاء العرب أن يلزموا السكينة ويعكفوا على أشغالهم ولا يخاصموا إيطاليا.

ونظنّ أنهم يصدقّوننا لكوننا طالما دافعنا عنهم كما أننا نظنّ أنهم من الضنك في بعدهم عن مساكنهم بحيث لو رجعوا إليها لا يفكّرون بالثورة مرّة أخرى. ثمَّ كيف تمكن الثورة بدون سلاح ومن المعلوم أنه ليس عندهم سلاح ولا قرطاس! فأخذ يكابر ويقول إنَّه كان يأتيهم سلاح من مصر وإنَّهم أمسكوا قافلة آتية بسلاح. فقلت له أول دليل على فساد هذا الزعم أنه لا يوجد بدل أعزل من كلّ سلاح مثل مصر. ولو كان عشر أهل مصر مسلّحين لكانت قضيّة مصر مع إنقلترا انحلّت من زمن طويل. بعد الأخذ والردّ اقتنع بموافقة إجراء مطالبنا لكن على شرط أن تصير إعادة هؤلاء إلى الجبل الأخضر تدريجيًا. فقلت له فليكن ذلك في أربعة أشهر أو ستّة أشهر

كلّ شهر يعاد منهم عشرة آلاف مثلاً. وهكذا ذهب على أن يقدم التقرير اللازم، وكان لا يزال يقول إنَّه يخشى معارضة العسكريين وكنت لا أزال أقول له: إذا أراد موسوليني أن يتمّم هذا الأمر فلا عسكرية ولا ملكية تقدر أن تنبس ببنت شفّة.

فيا أخي أنا أحبّ خدمة الإسلام بالضوضاء والجلبة ولا أقصد الشهرة الفارغة وجميع ما كنت أقوم به من الحملات الصحافية على أعداء الإسلام لم يقع منّي إلاَّ بعد قطع الأمل من الوصول إلى المراد بالحسنى. وإنَّني أرى أنَّ هؤلاء الثمانين ألف عربي أو البقيّة منهم سيضمحلّون تمامًا إن لبثوا في أرض سيرت، وإنَّنا إذا تمكّنا من إعادتهم إلى مساكنهم وأراضيهم الجميلة للجبل الأخضر وتمكّنا من إعادة الزوايا السنّوسية وأراضيها إلى ما كانت عليه فنكون خدمنا الإسلام خدمة أهمّ جدًّا من الحملات الصحافية التي لا شكّ أنها تؤلم إيطاليا وتضرّها، ولكنّها من الجهة العملية لا تفيدنا بقدر الوجه الأول إذا تمكّنا منه. فهذا المكتوب الطويل العريض أردت به أن أوقفك على السياسة التي أرى وجوب اتّخاذنا إيّاها حيال التطوّر الجديد في سياسة أوروبا وأطلب منك رأيك في هذا الشأن. هل ترى هذه السياسة صوابًا أم لا؟ وهل تظنّ أنه يمكننا استغلال الموقف الدولي الحاضر أم لا؟

إذا وافقتني على هذا الرأي فهل نقدر أن نبثّ هذا الروح في الجزائر وتونس أم لا؟

هذا من جهة المسألة الأولى. وحديث الكتاني إنَّما جاء عرضًا. ثمَّ أريد أخذ رأيك أيضًا في مسألة طرابلس، فهل ترى موافقًا أن نتصالح مع إيطاليا أم لا؟ وهل تجد إنقاذ ثمانين ألف عربي من الهلاك وإعادة زوايا السنّوسية وأراضيها وحمل إيطاليا على تبديل خطّتها ممّا يستحق هذه المصالحة أم لا؟ ولا حاجة إلى أن أقول إنَّه ينبغي كتمان هذه المسألة عن كلّ أحد إلى أن تكون تمّت. نعم قد كتبت بخلاصة ما جرى إلى البشير السعداوي رئيس الجمعيّة الطرابلسية ـ البرقاوية لأنه في مراسلة مستمرّة معي منذ سنين.

إنّني لا أعلم علاقاتك مع الأخ عبد الرحمان بك عزام لكنّي أظنّك تعلم أنه من أدرى الناس بأمور طرابلس ومن أخلص رجال المسلمين ومن المصريين القائلين بالوحدة العربية. ولا يمكن إلاّ أن يكون حائزًا ثقتك واحترامك فهل من مانع يمنع بأن تتفكّر أنت وإيّاه في هذا الموضوع؟ وأن تفضيا إليّ برأيكما حتّى أعلم كيف أسير لأنّني لا أكتفي برأيي الخاصّ. ولا بدّ لي من الاستناد على رجال لهم مقامهم في العالم الإسلامي وكلمتهم بين العرب فلا تؤاخذني على إطالة هذا الكتاب لأنّ المواضيع التي فيه جديرة بالاهتمام وأنا بانتظار جوابك. وإن شئت أيضًا مطالعة الأستاذ الأكبر صاحب المناد فذلك لك. وأمّا عزام فيلزم إطلاعه على كتابي وأخذ رأيه لأنه حجّة في السياسة العامّة وسياسة طرابلس خاصّة. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

أخوك شكيب أرسلان

رسالة رقم ٧ **جنيف، ٢٥ ذي الحجة ١٩٠١ (١٩٣٣/٤/٢١)**

سيّد الأخ الأستاذ:

طيّه كتاب من سراييفو[1] أرجو منك الاطّلاع عليه وإن أمكنك عمل شيء لدى مشيخة الأزهر فتفضّل بإفادتي فإنّي أنا لا معرفة لي بأحد في إدارة الأزهر. من ١٠ أيام أرسلت إليك بكتاب مطوّل مسجّل والله يجعل ما فيه الخير والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

أخوكم شكيب أرسلان

متى اتّسع لي الوقت أخبرك بما لا بدّ أن يكون ترامى إليك من اشتداد الخلاف بين السلفيين والطّرقيين في الجزائر وإلى أية درجة وصلوا في السباب من الجانبين.

تجاوزوا العلويين والإرشاديين في الجاوى.

(١) سرايفو: عاصمة البوصنة ذات الأغلبيّة المسلمة.

القاهرة، ١٢ محرّم ١٢٥٢ (١١ مايو ١٩٣٣)

رسالة رقم ٨

حضرة الأخ الأكرم صاحب العطوفة الأمير الجليل وفّقه الله وأعزّه:

السلام عليكم وعلى آلكم وأصدقائكم جميعًا ورحمة الله وبركاته:

وبعد،

فقد حظيت منكم برسالتين كريمتين مؤرّختين ١٧ و٢٥ ذي الحجّة ١٣٥١[1] وعذري في تأخير الردّ مع الحرص على التعجيل به إشارة عطوفتكم بأن يكون الجواب عمّا كتبتموه مشتركًا في الرأي مع الصديق الأستاذ عبد الرحمن بك عزام. وفعلاً فقد اتّصلنا في مساء يوم ٩ محرّم[2] فألفيته ملمًّا بموضوع الرسالة الأولى، ولكنّه اعتذر عن الأخذ والردّ فيه بأنه على أهبّة السفر إلى العزبة لأمر ضروري وتواعدنا على اللقاء في منزلي بعد ثلاثة أيام، والغالب على الظنّ أنه لم يعد وإن عاد لم يفِ. نظري في الشيخ عبد الحيّ الكتاني وأضرابه:

لا أحسب هذا الشيخ في الجملة إلاّ رجلاً عاديًّا ليس في العير ولا في النفير، وهو من أولئك النفر القلائل الذين يحتلبون الرزق باسم الطريقة من ضرع المغفّلين في بادية المغرب باتّفاق مع فرنسا، لقاء تضليل المواطنين المساكين وخداعهم. شأنه في ذلك شأن أمثاله من المرتزقة بالشعوذة والحيل وربّما تفوّق عليهم في عرض شواهد الإخلاص والتعلّق الشديد بفرنسا، وكلّ ما ناله من حظوظ لدى أسياده أنه موطّأ الظهر لاستعمارهم يأمرونه فيأتمر وكفاية يا أخي أن تعرف منزلته من لحن قوله في الرسالة التي كفّر بها أخاه الشهيد السيِّد محمَّد الكتاني[3] بعد مقتله لشروعه في تأليب القوم ضدّ فرنسا لما أحسّ بما تبيته للمغرب في الهجوم عليه، فقتله مولاي

---

(١) الموافق لـ: ١٣ و٢١ أفريل/نيسان ١٩٣٣.

(٢) الموافق لـ: ٤ ماي ١٩٣٣.

(٣) محمَّد الكتاني، (١٨٧٣ ـ ١٩٠٧). فقيه متصوّف من أهل فاس. انتقد علماء فاس بعض أقواله ونسبوه إلى قبح الاعتقاد وشكوه إلى السلطان عبد العزيز بمراكش واتّهموه بطلب الملك. فرحل إلى مراكش وأظهر براءته، ثمّ أذن له بالرجوع إلى فاس فعاد إليها. ولمّا أراد أهلها عقد البيعة للسلطان عبد الحفيظ تولّى الكتاني إملاء شروطها وفيها تقييد السلطان بالشورى. أسر ومات.

عبد الحفيظ[1] ظلمًا وعدوانًا وإرضاء لفرنسا، ثمَّ أتى هذا العبد الحيّ ويثبت كفره لتبرير قتله، وكبير على نفسي أن يخدعك هذا الكذوب بأقواله وكثرة أتباع طريقته، وأنَّ زواياه مفتوحة في مواطن البربر لاستظهار القرآن الكريم وتدريس العربية ولا شيء من ذلك بصحيح على الإطلاق. لأنَّ بلاد البربر تعتبر في منطقة النفوذ الفرنساوي بلاد نصرانيّة ليس فيها إلاَّ الكنائس ومدرس التبشير للآباء البيض، وزوايا الطرق لا توجد إلاَّ في المناطق الغربية القريبة من المدن، وهي سواء أكانت كتانية أم صوفية فما هي إلاَّ معاهد للتبشير بعظمة فرنسا أو تفوّقها في المغرب وإقناع السذج المتدنيين بطاعتها وإفهامهم أنَّ الله مسلّطها عليهم ومُوليها أمرهم ولا مفرّ من قدرة إلاَّ إلى الجحود والإنكار وتلك شيعة الملاحدة العصريين الذين يتبرّؤون[2] من قضاء الله وقدره وهم كفّار وإن كانوا في ملابس المسلمين.

هذه هي تعاليم الزوايا ومشايخ الطرق في المغربين الأقصى والأوسط ولكن زوايا الأخير تفضل زوايا الأول بتعليم القرآن والفقه والنحو منها زوايا التيجانية في القمار وعين ماضي والجفلة وزوايا الرحمانية في الهامل وجرجره وأقبوه ووادي سفان والعثمانية وزوايا الشاذلية في جبل أيدوغ ومستغانم[3] ولا شيء من ذلك في زوايا المغرب. ولا ينبؤك مثل خبير فقد جبت بلاد شمالي أفريقيا من برقة إلى مراكش مستقرئًا وباحثًا في رحلتين قمت بهما في ١٨٩٧ و١٩٠٣[4] ولم تفتني فيها شاردة ولا واردة إلاَّ وقفت عليها وقتلتها درسًا وتحقيقًا. أما بذرك يا مولاي لتلك البذور الطيّبة وفي فكرة الكتاني الموات فلم تنبت ولن تنبت أبدًا لأنَّ الفرنساويين وليس من شأنهم أن يقبلوا من المزدلفين المستخدمين رأيًا يخالف رأيهم في شمال

---

(١) السلطان عبد الحفيظ، (١٨٦٣ ـ ١٩٣٧). من سلاطين الدولة العلوية في المغرب الأقصى. ولد بفاس ونشأ وتعلّم في قبيلة بني عامر. انتدب خليفة بمراكش سنة ١٩٠٤، فنادى به الجنود وأهل القبائل الحوزية سلطانًا فيها وانقسمت الدولة إلى شطرين واستعان بالفرنسيين لخلع أخيه عبد العزيز واتّخذ من فاس عاصمة له، فثارت عليه القبائل مرّة أخرى واستعان بفرنسا أيضًا فقمعت الثورتين واستلمت البلاد بإمضاء معاهدة ٣٠ مارس ١٩١٢. وعزل في نفس السنة، ونفته فرنسا ومنعت عليه العودة إلى المغرب. مات بفرنسا.

(٢) هكذا وردت [المحقّق].

(٣) كلّها مدن بالجزائر.

(٤) راجع الدكتور أحمد بن ميلاد ومحمّد.م. إدريس ـ الشيخ الثعالبي والحركة الوطنية، الجزء الأول، بيت الحكمة، تونس ١٩٩١، ص.١٢.

أفريقيا والرجل الذي شعر من نفسه بالقوّة على هذه الصراحة غير موجود الآن ليس في المغرب الأقصى فقط الذي اتّصل حديثًا بفرنسا، وهو لم يزل يتهيّبها بل وكذلك في تونس التي تشعر بثقل ظلمها فإنَّ من يحاول من الوصوليين أن يصارحهم برأيٍ منافٍ لسياسة القضم والابتلاع يتّهم في إخلاصه ولا جزاء له عندهم إلاَّ الإقصاء والحرمان، وعلى ذلك شواهد كثيرة من ضحايا الصراحة. فالوصوليون في بلاد شمال أفريقيا سواء ملوك ووزراء ومشايخ إسلام وسوقة: مولاي محمَّد، أحمد بالي[1]، المقري، الهادي الأخوة[2] الطاهر خير الدين[3]، ابن غبريط[4]، محمَّد بن يوسف المولود عبد الله الفضيلي بن ميهوب شيخ جامع القرويين، عبد الرحمن الكتاني، الدكتور بن التهامي حسن فلاتي[5]، ومن لفَّ لفّهم دأبهم التحريض للفرنسيين على قومهم والتحقير من شأنهم والاستهتار بذاتيّتهم والامتهان لحقوقهم إلى غير ذلك من دلائل الانحطاط والتسفّل ولا باعث لهم على ذلك إلاَّ الطمع في أن يعيشوا آمنين مرفّهين معيشة مادية سقيمة.

ولست أَغْمِطُ حقًّا لأحد إذا كاشفتك بالحقيقة المرّة وهي أني ما وجدت رجلاً وصوليًّا أنجبته أفريقيا، له نزعة صادقة شريفة تحمله على مصارحة رجال فرنسا بما أفضيت به إلى الشيخ عبد الحيّ الكتاني في حديثك المستطاب غير السيِّد الأبيّ ابن رحّال في خطاب كان ألقاه في مؤتمر الاستشراق المعقودة سنة ١٨٩٧ في باريس ثمَّ

---

(١) أحمد باي، (١٨٦٢ ـ ١٩٤٢). باي تونس من سنة ١٩٢٩ إلى وفاته. ولد بتونس، وخلال مدّته نشطت الحركة الوطنية وقمعت في عديد المناسبات وأهمّها واقعة ٩ أفريل ١٩٣٨.

(٢) الهادي الأخوة، (١٨٧٣ ـ ١٩٤١). ولد بتونس وتعلّم بالصادقية وعند تخرّجه باشر خطّة كاتب بإدارة العلوم والمعارف ثمَّ مترجمًا بإدارة بلديّة تونس ثمَّ رئيسًا للقسم المالي بها فرئيسًا لقسم الحسابات بالحكومة، فمدير الأقسام وانتقل سنة ١٩٢٢ إلى رئاسة القسم الأول ثمَّ تولّى خطّة وزير للقلم والاستشارة سنة ١٩٢٦ فالوزارة الكبرى سنة ١٩٣٢ إلى وفاته.

(٣) الطاهر خير الدين، (١٨٧٥ ـ ١٩٣٦). ابن الوزير خير الدين، ولد بمنوبة ونشأ وتفقّه بتركيا. خرج مع كافّة عائلته للالتحاق بوالده باستانبول سنة ١٨٧٩. انتخب معينًا للسلطان عبد الحميد وبقي في حاشيته ١٧ عامًا، وصل في آخرها إلى رتبة أمير لواء. انتخب نائبًا بمجلس الأمّة ثمَّ واليًا على فلسطين. رجع إلى تونس بعد نفيه إلى ساحل البحر الأسود سنة ١٩١٤. أصبح وزيرًا للعدليّة سنة ١٩٢١.

(٤) ابن قبريط، كان من المغالين في الدعاية للسياسة الفرنسية بالمغرب، عيّن في منصب الشؤون الخارجية.

(٥) حسن قلاتي، (١٨٨٠ ـ ١٩٦٦). ولد ببوغازي بالجزائر. درس بمعهد كارنو، ثمَّ بكلّية الحقوق بتولوز، فرنسا. دخل المحاماة سنة ١٩٠٣، كان من أعضاء الشبيبة التونسية ورئيسًا لجمعيّة الآداب. نفي إلى الجزائر سنة ١٩١٢ بعد حوادث الترامواي ثمَّ إلى فرنسا فتركيا فمصر. عارض نشأة الحزب الدستوري ورأس الحزب الإصلاحي سنة ١٩٢١.

نشره في رسالة مطبوعة على حدة في اللغة الإفرنسية بعنوان (كلمة في الإسلام) نقلتها جريدة (المؤيّد) إلى العربية في أعداد متوالية وهي أفضل ما كتب على السياسة الإسلامية تجاه أوروبا.

ورجائي بما كتبت لا يغترّ أخي بزعانف الوصوليين فهم شركاء فرنسا في كلّ محنة تنزل بنا في شمال أفريقيا من ابتلاء وفتنة وهم يلتحقون بنا ويحسبون أنهم منّا وإلينا فبعدًا لهم وسحقًا وحاشى لله أن يقبل توبة منهم...

هل أتاك نبأ استفتاء الهادي الأخوة وزير تونس الأكبر في صحّة إيمان المتجنّس بالجنسيّة الإفرنسية الذي ألقاه بآسم الحكومة إلى المجلسيين الشرعيين المالكي والحنفي بتونس وافتياء المجلسيين على الإفتاء في ذلك بغير ما أنزل الله وبما يطابق أهواء الحكومة ولعلّك أدركت ما بين السائل والمجيب من الخدع والحيل على الله والتأويل لمقاصد الشريعة والإثبات للكفر في صلب الإيمان والتضليل للشعب المسكين اليقظ في دينه لتحويله عن عقيدته. وقد كان في وسع السائل والمجيب أن يتفاديا ذلك بالقول لشيطانهما (فرنسا) حسبنا الله من إثارة هذه الفتنة العمياء في ديننا، ولك في قوتك الغاشمة ما يمكنك من دنيانا ويغنينا عن الانحراف عن ديننا والتحريف لنصوص كتابنا، فيتعطّفون بهذه الكلمة الحاسمة فتزول الفتنة من أهله. وفرنسا مهما كانت جائرة فإنَّها لن تستطيع أن تهيمن على الضمائر الطاهرة موطن القداسة والحقّ ولكن أبت النفوس الخاسرة إلاَّ أن تكون حربًا دنيئة على الدين والقوميّة فتآمرت مع الأعداء على إتيان هذه الجريمة ولم يخفوها عن اقترفها دين ولا إيمان ولا علم، وأحقّق لك يا أخي أنَّ الوزير الأول وشيخ الإسلام هما من أذكى الرجال الذين أنبتتهم بلادنا وأنبه المتعلّمين فيها وأدرى الناس بأحوال العصر الحاضر وهما من الكتّاب المعدودين الأول في الفرنسيّة والثاني في العربية.

وما أظهرتك على هذا الحدث القذر إلاَّ لأجعل لديك مقياسًا صحيحًا للنفسيّة المستخذية، نفسيّة الوصوليين النفعيين في أفريقية الشمالية المنكوبة بأمثالهم فلا تغرّك

العناوين والألقاب في المستقبل. دعنا من شمالي أفريقية والأفريقيين فقد علمت يقينًا أنَّ الشيخ محمَّد بخيت[1] استفتته فرنسا أيام كان مفتيًا للديار المصرية عقب الحرب العالمية الكبرى في إيمان المتجنّس فأفتاها بصحّته وهذه الفتوى مسجّلة بدفتر الفتوى في دار الإفتاء فما قولكم دام فضلكم في مثل هذا الشيخ النحس؟ «الاتّفاق مع الأجانب». لا تتريب عليكم من الاتّفاق مع أيّ سلطة أجنبية للنكاية بأخرى أشدّ منها ضراوة على الإسلام والمسلمين بشرط أن تلتزم لنا تلك السلطة التي تسايرونها وتصانعونها بمساعدتنا حين اللزوم بالمدد لكفاح العدوّ، وأن لا تجعل بلادنا هدفًا لها وأن لا تسويّ مشاكلها على حسابنا فإنَّ للإيطاليين الجشعين مطامع في شمال أفريقية يجب أن يحسب لها ألف حساب للحذر منها ويمكن أن نهاندها في الظروف المرتهنة إلى حين منازلة عدوّنا المشترك بشرط أن تفتح لنا بلادها لإيواء اللاجئين منّا إليها عند الحاجة. وأن تسرع في تحسين حالة إخواننا الطرابلسيين بإشراكهم في التشريع لبلادهم والمساواة بينهم وبين الإيطاليين في الأحكام والمناصب والمرتبات، والانتفاع من المرافق العامّة واحترام الحرّيات. وأمّا الاقتصار على إعادة السنّوسيين من صحاري سرت إلى الجبل الأخضر فلا يليق أن يكون ثمنًا للمهادنة أو الوفاق مع أمّة لاتينية تتوثب إلى الاستعمار.

هذا ما لديّ والرجاء أن تتفضّلوا بقبول تقديري وأشواقي.

عبد العزيز الثعالبي، روض الفرج نمرة ٢٣، شارع خورشيد البحري، القاهرة.

---

(١) محمَّد بخيت، (١٨٥٤ ـ ١٩٣٥). مفتي الديار المصرية ومن كبار فقهائها. ولد ببلدة (المطيعة) من أعمال أسيوط وتعلّم في الأزهر. وعند عمله بالقضاء اتّصل بجمال الدين الأفغاني. كان من أشدّ المعارضين لحركة الإصلاح للشيخ محمَّد عبده، وعيِّن مفتيًا للديار المصرية فيما بين ١٩١٤ و١٩٢١. له عديد الكتب، منها (إرشاد الأمّة إلى أحكام أهل الذمّة) و(إزاحة الوهم) و(الأجوبة المصرية على الأسئلة التونسية).

رسالة رقم ٩

جنيف، ١٤ ربيع الآخر (٦/٨/ ١٩٣٣)

سيّدي الأخ الأستاذ حفظه الله:

من ثلاثة أيام كتبت في موضوع تونس والحركات القائمة في أقطار المغرب وأظنّ أني أشرت إلى المناظرة الواقعة بين إيطاليا وفرنسا، والآن أريد أن أكمل كتابي المذكور ما فاتني فيه وهو أنّ تقرّبًا شديدًا حاصل بين فرنسا وتركيا، قد اشتدّ هذا التقرّب على أثر رفض السوريين المعاهدة مع فرنسا حسب اقتراحات بونسو، والمظنون أنّ تقارب فرنسا وتركيا لا يخلو من أشياء تتعلّق بسوريا. وبعكس الأمر حالة إيطاليا مع تركيا موجودة بين الفريقيين برودة أكيدة ويقال إنّ الأتراك اطّلعوا بطريق التصادف على أوراق وجدت في وابور[1] إيطالي جنح في ساحل أخاليه، وهذه الأوراق تشتمل على خطط حربية لاحتلال الطليان تلك السواحل، فارتاع الأتراك من ذلك وأخذوا ينظرون إلى إيطاليا بعين الحذر وعادوا إلى النفار مع فرنسا، ولذلك الطليان الآن يسعون في التقرّب من العرب في كلّ مكان وبينهم وبين الملك فيصل تفاهم تام. نعم إنّ توفيق رشدي مرّ من شهرين بإيطاليا وأعلن أنّ إيطاليا وتركيا متّفقتان في الأفكار، ولكن الحقيقة خلاف ذلك وأنّ كلتيهما تصانع الأخرى مصانعة.

وأبلغ من ذلك في المصانعة ما يشاع من التقارب بين فرنسا وإيطاليا ومن كون العقد الذي وُقّع عليه من الدول الأربع هو السبب في هذا التقارب. فالحقيقة أنّه برغم العقد المذكور لا تزال المناظرة والحذر على أشدّهما وعندنا من «باريز» أخبار عن شدّة الحنق الواقع على إيطاليا كما أنّنا نعرف من رومة بأنّ سياسة إيطاليا ضدّ فرنسا باقية في محلّها. وقد كتبت لكم راجيًا إفادتي بالحقيقة على إجراءات إيطاليا الأخيرة في برقة وطرابلس.

---

(١) وتعني سفينة.

هذا وبمناسبة شروعي بطبع كتاب اسمه «الحلّة السندسيّة في مقام العرب بجبال الألب والبلاد الإفرنسية» بلغني أنَّ عندكم بضائع ذات قيمة في هذا الموضوع، فإن كان هذا الخبر صحيحًا فأرجو أن تفرغوا لذلك يومين من الزمن وتحرّروا لي خلاصة هذه المعلومات حتّى نجعلها في الكتاب نفسه منسوبة لكم أو موقّعًا عليها بإمضائكم أو كما تشتهون ويكون لكم الفضل. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم شكيب أرسلان

جنيف

رسالة رقم ١٠

جنيف، ٣١ أغسطس ١٩٣٣

سيّد الأخ الأستاذ المحترم:

لم أتمكّن من مجاوبتكم على كتابكم الأخير وكنت أحبّ أن أتبادل وإيّاكم الرأي بشأن الحوادث التونسية الأخيرة إلاّ أني رأيت كلّما يلزمني الاطّلاع عليه في الجرائد، وعلى كلّ حال فأرى التونسيين مستأنفين نهضة جديدة تدلّ على كونهم لا يزالون أحياء والحمد لله، وما أظنّ تغيير المقيم العام المسيو منسرون[1] إلاّ لسبب الاضطراب الذي وقع في تونس، فهل تتغيّر سياسة فرنسا بتعيين مقيم عام جديد؟ كلاّ ولكن التغيير أحسن من عدم التغيير وكذلك رفع المسيو سان[2] من المغرب أفضل من بقائه، وفي ظنّي أنه لا بدّ لفرنسا من إدخال بعض التعديل في خطّتها في شمال أفريقية فإنّ في تونس حركة قويّة وفي الجزائر حركة قويّة أيضًا وفي المغرب الأقصى حركة تزيد على حركة الجزائر وتونس. وقد علمت من مصادر موثوق فيها أنّ الحكومة في "باريز" تعتقد اعتقادًا جازمًا أنّ هذه الحركات فيها من الشرق من حزب البانيسلاميزم[3] وأنه إذا حصلت حرب أوروبية فلا تكون حالة شمال أفريقية هذه المرّة كما كانت في الحرب الكبرى بل يثور المسلمون في هذه الأقطار الثلاثة. قد سمعت عن لسان وزير كبير أنه قال: هذه المرّة سنضطرّ لإرسال عساكر من فرنسا لمحاربة مسلمي شمال أفريقية بدلاً من أن نأخذ منهم عساكر إلى أوروبا.

ثمّ إنّه عند الفرنسيين اعتقاد آخر وهو أنّ الطليان لهم يد أيضًا في التحريك عليهم وهذا من جملة ضلال الفرنسيين لأنّ المسلمين لا يسمعون للطليان وهم يكرهون الطليان بسبب حوادث طرابلس ككرههم للفرنسيين وأشدّ.

---

(١) مونسرون من مواليد ١٨٧٢. درس الحقوق بباريس، بعد تقلّبه بمناصب إدارية عديدة عيّن نائبًا للمقيم العام بتونس سنة ١٩١٢. أصبح كاتبًا عامًّا للحكومة ١٩١٩، ثمّ التحق بالايبتيت بفرنسا فعيّن واليًا على "الموزيل" سنة١٩١٩ وسمّي مقيمًا عامًّا في تونس فيما بين ١٩٢٩ و١٩٣٣.

(٢) لوسيان سان، سبقت الترجمة له.

(٣) البانيسلاميزم (Le panislamisme) كلمة فرنسية وإنقليزية تعني السياسة الإسلامية، التي تعتمد أفكار الجامعة الإسلامية والأسس النهضوية لأفكار محمّد عبده والأفغاني وغيرهم في مرجعيّة الدين الإسلامي في العمل النهضوي والسياسي.

غير أنَّ الطليان في المدّة الأخيرة قد بدأوا يعدّلون من خطّتهم وقد كنت كتبت لك مطوّلاً بشأن ما جرى بيني وبينهم بواسطة شخص تدخّل في الأمر وقد أخبرتكم بما اقترحت عليهم وبعد ذلك بدأوا بإنفاذ هذه الاقتراحات تدريجيًّا كما قالوا لي. وأنا بعد أن وردني جوابكم الأخير نشرت مقالة في الجامعة العربية عنوانها «المسلمون وإيطاليا» ربّما تكونون اطّلعتم عليها وقد اعترفت بموقف إيطاليا في جهة العرب في مسألة العراق وكذلك في مسألة سوريا وقلت إنَّه، برغم هذا، لا بدّ لنا من أن ننظر إلى حالة إخواننا أهل طرابلس وبرقة لأنهم عرب ولسنا بأنذال لننفض أيدينا منهم، فإن كانت إيطاليا تبغي استمالة قلوب المسلمين فيجب عليها تغيير سياستها في طرابلس وإعادة عرب الجبل الأخضر إلى بيوتهم وأراضيهم، ومعاملة المسلمين بالمساواة مع الأوروبيين وإشراكهم في إدارة البلاد، إلى غير ذلك.

وقد جاءتني من روما تقارير طويلة فيها خلاصة التدابير التي اتّخذتها الحكومة ولا تزال تتّخذها لأجل إعادة عرب الجبل الأخضر إلى أراضيهم وإصلاح أمور المسلمين والاعتناء بأحوالهم الزراعية والصحّية والتهذيبية والدينية وغير ذلك وسأنشر خلاصة هذه التقارير في مجلّتنا (لا ناسيون آراب)[1] وسأقول إنَّ كلّ هذا يسرّنا ولكنّي أريد أن آخذ أخبار هذه التدابير الحسنة من مصر لأنها لا تخفى عن المصريين والطرابلسيين الذين هم ساكنون في وادي النيل.

وجئت الآن أرجو منك أن تستعلم لي بالتدقيق المعهود فيك وبتحرّي الحقيقة الراهنة عن التدابير الجديدة التي أرسلوا لي من روما عنها التقارير الطويلة وقصاصات الجرائد، فهل بدأت إيطاليا تعيد العرب من ساحل سرت إلى الأراضي الممتدّة بين السلوم ومرطوبة[2]؟ وهل قامت الحكومة الإيطالية بهذه المساعدات المادّية والمعنوية التي تزعمها؟ وما هي الحالة الحقيقية هناك؟

---

(١) صدر ذلك في مجلّة الأمّة العربية (La Nation Arabe) أفريل/جوان ١٩٣٣، ص. ٢٣.

(٢) السلوم والمربوطة، مناطق قرب الحدود الليبية ـ المصرية.

إنَّ هذه الأمور لا تصعب عليكم أن تجلّوها ويكون من تمام لطفكم أن تتفضّلوا بإفادتي عن الحال والموقع حتّى أعلم ماذا أجاوب روما، وأعرف ماذا يجب أن أكتب في (لا ناسيون آراب) وفي الجرائد العربية.

كنت كتبت إلى الأخ عبد الستّار بك الباسل عن هذه المسألة وحتّى الآن لم يجاوبني. أمّا عبد الرحمن بك عزام فلم أكتب له لأنَّ الجواب على الكتاب ليس عنده بضروري وقد سرى إليه هذا المرض من إخواننا المصريين مع أنه هو عربي بدوي ليس بمصري فرعوني وأمّته الأمّة العربية قاطبة، فإن شهدتموه فأهدوه سلامي واحترامي والرجاء أن لا تنقطع عنّي أخباركم وإرشاداتكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم شكيب أرسلان

لم نجعل شرط المهادنة مع إيطاليا إعادة أهل الجبل الأخضر بل قلنا لهم إنَّها تكون المرحلة الأولى في طريق التوادّ.

رسالة رقم ١١ **جنيف، ٢٠ جمادي الأولى ١٢٥٢ (١٩٣٣/٩/١٠)**

سيّدي الأخ الأستاذ:

متوجّه المسيو منطنير مندوبنا من قبل إسبانيا في المعرض العربي بيافا[1] وسيلتحق به وفد مؤلّف من عدّة أشخاص نحن مجتهدون أن يكون بينهم أبي أميّة وغيره من زملائنا أعضاء الجمعيّة الإسبانية ـ الإسلامية[2] وكيفما كان الأمر فإذا كان هذا الوفد مسرورًا من سياحته ازداد نفوذ جمعيّتنا هذه وأمكننا بواسطتها أن نخدم إخواننا مسلمي المغرب ونفرجَ من كروبهم، إذا تعلم الحكومة الإسبانية أنَّ العالم الإسلامي حيّ لم يمت، وأنَّ علاقة إسبانية بالمسلمين تعود عليها بفوائد اقتصادية وسياسية والعكس بالعكس والمسلمون لا يفيدون في صقع إلاَّ وأفادوا في صقع آخر ولست في حاجة إلى الشرح أمام مثل الأستاذ، فالمرجو أن تعتنوا بالوافدين الموحى إليهم كلّهم من أعضاء الجمعيّة التي أنتم منها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم شكيب أرسلان

---

(١) يافا: مدينة بفلسطين.

(٢) الجمعيّة الإسبانية ـ الإسلامية. تأسّست بمدريد وكذلك البيت العربي. تأسّست في جوان ١٩٣٢ وكان هدفها التفاهم مع المغاربة وتمتين الصداقة مع العرب المسلمين. وكان أعضاؤها الإسبان من الحزب الاشتراكي والبعض من أصل عربي مثل خيل بني أميّة. وتركّب مجلسها الإداري من الرئيس: خوشي فرانتشي ـ خليفتان: الأمير شكيب أرسلان واميليو بياندو ـ أمين المال: ملتشيور ماريال ـ الكاتب العام: إنريكي دي رافلس خليفتاه السيّدان: سانتيا عونباردل ومحمّد الفاسي.

رسالة رقم ١٢

القاهرة في ١٩٣٣/٩/١٥

مولاي الأمير الجليل أعزّه الله:

فاتحة كتابي إليك حمد تلك الشيمة الطيّبة المرضية التي حباك الله بها. شيمة الكرم الفيّاض التي غمرت الشرق الإسلامي بعملها وأدبها. وأمتعته بكتاب حاضر العالم الإسلامي وأبت إلاَّ أن تتحفني به ذلك الكتاب القيّم المنسّق في وضعه الفريد في مباحثه، المفيد بتعاليمه وحواشيه. فقد هدانا على ضوء الثقافة الجدّية إلى أسلوب التفكير الأمريكي في أحوال الشرق الإسلامي وبعد غور البحّاثة المسلم فيما دقّق من شؤونه فكان خير مَعْلَمة يرجع إليها المحقّقون في مطالب العلم والاجتماع والسياسة وما إلى ذلك من أمور المسلمين، فجزاك الله يا أمير عن هذه الخدمة الموفّقة أفضل ما يجزي به العلماء العاملون الجاهدون المجدّون لخدمة مجتمعهم، فقد أرضيت بهذا المجهود النافع الله ورسوله والدين الحقّ وأيقضت الروح الإسلامي بعد طول الخمود. وبعد، فقد شرّفتني رسائلك الثلاث: الأولى مؤرّخة ٢٥ ذي الحجّة ١٣٥١، الثانية والثالثة ١١ ـ ١٤ ربيع الآخر ١٣٥٢ وقد تأخّرت في الجواب عنها لجمع الإفادات التي كاتبتني بها حتّى إذا توفّرت لديّ تبادرت إلى الكتابة.

الطالب البسني:

عقب ردود رسالتك الأولى قصدت لقاء الشيخ عبد الحميد شيخ رواق الأتراك وأطلعته على الكتاب الوارد مع الرسالة بشأن الطالب البسني، وبعد الأخذ والردّ في الموضوع علمت متن الشيخ أنه تلقّى رسالة من البوسنة في الغرض عينه وكان الطالب في هذه الأثناء قد زايل مصر إلى بلده على أن يعود إليها عند افتتاح السنة الدراسية المقبلة، ورأينا يومئذٍ من المشكل حرمان الطالب من الانتفاع بثمرات جهوده لمجرّد ورود رسالة من مكاتب مجهول الحال لدينا. وللاحتياط اتّفقنا على أن يكتب شيخ الرواق رسالة خاصّة في الغرض إلى الشيخ سالم مفتيج يسأله هل هناك ما يمنع قبول هذا الطالب في الأزهر فكتب إليه بذلك منذ أربعة شهور وإلى هذا اليوم لم يردّ عليه الشيخ مفتيج ولم يعد الطالب وهنا محلّ الواقف.

إيطاليا و الطرابلسيون:

انتدبتموني للكشف عن حقيقة تحسين سلوك إيطاليا في طرابلس مع إخواننا الطرابلسيين، وقد كان عسيرًا عليّ القيام بذلك وأنا في القاهرة وذلك لفقد المصادر الطرابلسية فيها فسافرت إلى الإسكندرية في أغسطس الماضي وسلخت في البحث والاستقصاء أيامًا معدودة استطعت أن ألتقط فيها المعلومات التالية: لمّا تغلّب الفاشيون في إيطاليا تبادروا إلى تنفيذ منهاجهم الاستعماري في البلاد الطرابلسية وهو تحويل طرابلس إلى قطعة إيطالية صنعًا وشكلاً، وليس من وراء هذا التوحيل غير إفناء مجتمعها القومي في الذاتية الإيطالية واستئصال شافة المعارضين لهذه السياسة ومصادرة أموالهم وأراضيهم - لذلك شرّعت القوانين والنظم الجائرة لتنفيذ هذه السياسة الجديدة وفرضت العقوبات الصارمة على مجرّد التهمة وقرّرت أحكام المؤاخذة بالتظنّن. وبهذه التدابير المرعبة سحقت المعارضة وفتكت بالإباء والشمم وخنقت أرواح المؤمنين بحقّ القومية الطرابلسية ومن قدّر له منهم الانقلاب من هذه القبضة الاستعمارية وكان خفيف الظهر تسلل إلى البلاد الإسلامية المجاورة وأقام فيها. فقد لجأ إلى المملكة التونسية من إخواننا الطرابلسيين الفارّين بدينهم وعربيتهم خلال العشرين سنة الأخيرة زهاء ١٥٠ ألف، والغالب على الظنّ أنهم لا يفكّرون في العودة إلى الوطن القديم الذي ذاقوا فيه صنوفًا من طعم الذلّ والإرهاق ولقد لقوا في الوطن الجديد من العمل في المناجم والمزارع وأشغال الطرقات ما وقاهم شرّ العوز وكفل لهم التمتّع ولو قليلاً بالحياة الرخية الهنية عوض ما كانوا يجدونه من القسوة والصرامة الفاشية في وطنهم المنكوب. وكيف يفكّرون في العودة إليه بعد أن جرّدتهم الحكومة الإيطالية من أملاكهم ووزعتها على المستعمرين من أبنائها؟ فإنّ أغلب أراضيهم الزراعية في (مسراطة)[1]

---

(١) مسراطة: من أشهر مدن طرابلس وتقع شرقيها بنحو ٢١٥ كم وعرفت بنشاطها التجاري وهي تقع على بداية خليج سرت أنشأ فيها سنة ١٩١٥ رمضان السويحلي حكومة وطنية عربية مستقلّة. كانت مركز الجهاد ضدّ الغزو الإيطالي الذين احتلّوها سنة ١٩٢٣ وبسقوطها سقطت كلّ جهة طرابلس.

و(الخمس)[1] و(العجيلات)[2] و(ترهونة)[3] و(زنزور)[4] و(تجورة)[5] و(قراقش)[6] و(غريان)[7] و(زوارة)[8] و(بوكماش) و(نالوت)[9] كلّها تحوّلت إلى مستعمرات إيطالية ولا أمل في إعادتها إلى ملاّكها الأصليين واقتلاع الجذور الإيطالية منها إلاّ بالفتح والسيف وأين هذا ممّا نحن فيه اليوم؟

إنّ غاية إيطاليا من استيلائها على طرابلس الغرب طلينتها. لذلك تراها جادّة في إفناء الأهالي الكارهين لهذه السياسة فقد تناقص عددهم في العشرين سنة الأخيرة بصورة فاجعة حتّى بلغوا إلى نصف مليون وكانوا في العهد العثماني يزيدون عن مليون وآخذين في التزايد بواسطة التناسل وانتشار الأمن ورخاء العيش ولو دام لهم هذا العهد إلى اليوم لبلغوا على الأقلّ مليونًا ونصف المليون.

هنا ندرك بالبداهة صعوبة عودة المهاجرين الطرابلسيين إلى هذه المنطقة المطلينة وكذلك استبعاد التصديق برجوع حكومة الفاشو عن النظم والتراتيب التي أجرتها منذ عشر سنين في تلك المنطقة لما يترتّب على ذلك من قلب أوضاع الإدارة والحكم رأسًا على عقب بعد استقرارهما على وتيرة واحدة في هذه السنين الطويلة، فضلاً عمّا في هذا القلب من مناهضة السياسة الاستعمارية التي يغالي الإيطاليون في تحقيقها لإحياء عهد الرومان كما يأملون ويرجون. هذه الأساليب الاستعمارية الفاتكة

---

(١) الخمس: مدينة تجاوز مدينة (لبدة) من الشمال وأسّست في أواخر القرن التاسع عشر وهي واقعة على البحر مباشرة. كانت في العهد التركي مركز متصرّفة الجهة الشرقية، تبعد ١٢٠ كم شرقي طرابلس.

(٢) العجيلات: منطقة بالقرب من ترهونة.

(٣) ترهونة: اسم لقبيلة قديمة ومن أكبر القبائل في طرابلس تبعد ٨٥ كم جنوب طرابلس.

(٤) زنزور: مدينة غربي مدينة طرابلس ذكرها التيجاني في رحلته.

(٥) تجورة: بلدة قديمة وتقع في الجنوب الشرقي من طرابلس، كانت مركز حكم خير الدين بربار وس التركي الذي كان يحارب فرسان يوحنا الذين كانوا يحتلّون طرابلس. اعتنى بتعميرها حميد الجارية سنة ٥٥٠هـ.

(٦) قراقش: قرية بقرب مدينة طرابلس. قد اتّصل بها البناء وأصبحت منها. وهي منسوبة إلى شرف الدين قراقش الغزى الأرمني مملوك تقي الدين أخ لصلاح الدين الأيّوبي.

(٧) غريان: يطلق على عدّة بلاد في طرف جبل نفوسة الشرقي. احتلّها الإيطاليون أوائل سنة ١٩١٣ إلى ١٩١٥. وكانت مقرّ اجتماع مؤتمر غريان سنة ١٩٢٠ وفيها انتخبت حكومة وطنية (هيئة الإصلاح المركزية).

(٨) زوارة: تقع بقر الحدود الغربية. كانت تسمّى (كوطين) كانت بها وقائع كبيرة في الحرب الطرابلسية. تعتبر عاصمة الحدود الغربية، تقع على بعد ١٠٩ كم من طرابلس. احتلّها الإيطاليون لآخر مرّة سنة ١٩١٦.

(٩) نالوت: مدينة من مدن جبل نفوسة. تقع في نهايته الغربية وتبعد ٢٨٥ كم عن طرابلس.

وأسبابها المريعة الجاري بها العمل في المنطقة الطرابلسية هي التي يعمل بها في المنطقة الثانية الشرقية (سرانابيك)[1] وقد فرّت منها أيضًا ألوف كثيرة من الأهالي خلال الحرب الطرابلسية الأولى فمنهم من استوطن أرض مصر ومنهم من نزح إلى فلسطين وسوريا وبرّ الأناضول، وكذلك فعلوا خلال حروب برقة التي ختمت بمقتل البطل الشهيد عمر المختار[2]. فقد هاجرت أهمّ القبائل من الجبل الأخضر وطبرق والسلوم إلى مصر وانتشرت على طول الخطّ من مريوط إلى البحيرة والغربية والجيزة والفيوم والمينا وأسيوط، ولا أكون مبالغًا إذا قلت إنّ عدد هؤلاء في القطر المصري يربو على ٧٥ ألف ومن تخلّف عنهم وبقي في مواطنه ونجا من فتكات طيّارات وحراب الإيطاليين ساقته الحكومة الإيطالية سوق الأغنام إلى شواطئ مسراطة ونصبت عليهم الحصار مدّة ثلاث سنين، هلك فيها أكثرهم بين تجويع وتشريد بحيث لم يبقَ منهم إلاّ العدد القليل وهؤلاء هم الذين طنطن الإيطاليون بنبإ إعادتهم إلى مواطنهم التي أخرجوا منها وليس يعلم أحد على التحقيق إذا كانت أعادت إليهم أراضيهم كلّها أو بعضها أم أنها لم تعد لهم منها شيئًا.

ماذا تفيد البلاد عودة هؤلاء البؤساء إليها بعد أن صاروا فقراء محطّمين لا يجدون ما يتبلّغون به؟ فكيف يستطيعون مع ذلك أن يزاحموا الاستعمار القويّ في سياسة الإنشاء والتعمير؟ فكيف بتشييد صرح البناء الاجتماعي الذي خرّبته إيطاليا عن سوء نيّة بدون أن يستعينوا بالقروض وأين يجدونها؟ تلك هي نتيجة طبيعية لسياسة إيطاليا الاستعمارية الحقودة في طرابلس وبرقة.

أمّا حالة عربان ابن غازي فإنّها شديدة الغموض لقلّة المصادر التي يمكن النقل

---

(١) سيرينياك وهي المنطقة الشرقية لليبيا.

(٢) عمر المختار، (١٨٥٨ ـ ١٩٣١). أشهر مجاهدي طرابلس الغرب ضدّ الغزو الإيطالي. نسبته إلى قبيلة (المنفة) من قبائل بادية برقة. ولد في (البطنان) ببرقة وتعلّم في الزاوية السنّوسية بالجغبوب. وأصبح شيخًا على (زاوية القصور) بالجبل الأخضر بقرب المرج. كان في طليعة الناهضين إلى الجهاد عندما احتلّ الطليان مدينة (بنغازي). وبعدما تصالحَ الإيطاليون والطرابلسيون، تولّى عمر المختار قيادة (الجبل الأخضر) وتلاحقت به القبائل. واتّفق الرؤساء على أن يكون القائد العام والرئيس الأعلى للمجاهدين. وردّوا هجوم الإيطاليين وغنموا آلات حربية ومؤنًا كثيرة. وأشهر المعارك (الرحيبه) و(عقيرة المطمور) و(كرسة). وأسر وحمل إلى (بنغازي) وقتل شنقًا في مركز (سلوق) وكان لاستشهاده وقع كبير في الوطن العربي.

عنها ولا سبيل للاطّلاع عليها إلاَّ بعد فتح طرق المساحة في وجوههم إلى السلوم وغيره من أسواق الحدود التي يحرّم الإيطاليون عليهم الاجتياز منها وقفلوها بأقفال من فولاذ ووضعوا مفاتيحها في وزارة الاستعمار بروما وهي تكره فتحها في وجوه العربان حذرًا لاتّصالهم بمصر. وفي هذا وحده ما يكفي للدلالة على فساد الحالة التي يتكتّمها الاستعمار ولا يريد انكشافها للعالم الإسلامي عن طريق مصر.

وقد تظافرت الروايات الأخيرة على أنَّ الحكومة الإيطالية شارعة في استعمال الجبل الأخضر بواسطة العاطلين من الإيطاليين... أين تكون حظوظ الأهالي ومقدراتهم من هذه السياسة الطاغية وهي نذير الهول والموت؟ وأكثريّتهم مشدودون بين الدلتا والصعيد وهم لم يفاتحهم أحد في الرجوع إلى مواطنهم. وكلّ ما لدينا من ذلك أنَّ إيطاليا تحاول أن تثبت جنسيّة الطرابلسيين الأهلية للأراضي مربوط لبسط نفوذها على هذه المنطقة البحرية من تراب الدولة المصرية، وقد ينخدع هؤلاء السذَّج لقبول هذه الحماية في الخارج بعد أن قارعوها في بلادهم قرعًا عنيفًا. على أنَّ كلّ من تحدّثنا إليهم من اللاجئين الطرابلسيين إلى مصر يؤكّدون رغبتهم في العودة إلى بلادهم ولا يفضّلون عليها الإقامة في وادي النيل الذي لم يجدوا فيه ما يكفل لهم العيش، وبالأخصّ إذ وعدتهم إيطاليا بردّ أملاكهم وقد أنستهم الضائقة الشديدة الحالية نفورهم الشديد السابق.

ومن المفارقات العجيبة في السياسة الإيطالية ما وافتنا به المصادفة، ففي الساعة التي كنت تتحدّث فيها إلى رسل إيطاليا عن تحسين علائقهم وإصلاح سياستهم مع العالم الإسلامي على قاعدة تغيير سلوكهم في طرابلس من الطرابلسيين (وهم يعدونك بذلك) كان بعض أذنابهم من هؤلاء المستدجنين يشتغلون ضدّك بمساعٍ دنيئة في تونس وسوريا وغيرهما وقد فضحتهم في ذلك بعض الجرائد التونسية. فقد ذكرت أنَّ صاحب جريدة الترقّي كتب إلى بعض فضلاء هذه الأقطار بلَمْزِكَ وتَهَمَتِكَ بمساومة إيطاليا وأنا لا أستبعد في ذلك أنَّ الإيطاليين الذين كانوا يصانعوك هم الذين يحرّكون هؤلاء الأذناب بإلقاء هذه التهم للنيل منك.

وإلاَّ فمن المستبعد أن يتحدّاك صاحب جريدة الترقّي ويتّهمك بالاتّفاق مع إيطاليا على غير حقوق وهو من صنائع الإيطاليين لو لم يكن مدفوعًا لذلك منهم.

ومهما يكن فقد حمدت الله على انكشاف ستر هذه المؤامرة الخبيثة المقيتة وقد أرسلت إلى تونس أطلب الاطّلاع على النصوص التي كتبها صاحب الترقّي في حقّك لأرسلها إليك لتقف فوق ما أنت على حرب دول الاستعمار للرجال العاملين. وبالآخرة أريد أن أستطلع طلع رأيك في الموضوع.

فرنسا في شمال أفريقيا:

لست أسلّم أبدًا أنَّ سياسة فرنسا الاستعمارية في شمال أفريقيا تتغيّر من سيّء إلى حسن بتغيير أشخاص المقيمين، بل أجزم في ذلك بأنها تتغيّر من سيّء إلى أسوأ ولديّ على ذلك تجارب كثيرة صحيحة غير قابلة للنقض. فقد تداول على بلادنا من يوم إعلان الحماية المشؤومة ١٢ مقيمًا لم نرَ منهم إلاَّ التعاقب في التنافس على السياسة في السلب وإرهاق الشعب بالمظالم والمغارم في لفظ معسول ووعد خلاّب باتّباع قواعد سياسة التشريك وما هي إلاَّ الحرمان المقنّع والنهب المكشوف، قواعدها الغرم على التونسيين والغنم للفرنسيين وما أدركنا ولا علمنا أنَّ مقيمًا لاحقًا نسخ عملاً شرّع فيه مقيم سابق ولو كان ظلمًا فادحًا وعدوانًا صارخًا، بل يضيف لذلك ظلمًا أشدّ وعدوانًا أفظع يجعل الأمّة تذكر أسلافه بكلّ خير وتتمنّى رجوع أيامهم التي كانوا يشكون منها. وكم رأينا من المقيمين عدلوا عن مشاريع تهيّبوا تنفيذها ولمّا جاء خلفاؤهم من بعدهم أقدموا عليها ونفّذوها. وما يجري من ذلك في تونس يجري بعَينه ومَينه في المغربين الأوسط والأقصى. سترى ذلك عيانًا فيما سيجرّبه المقيمان الجديدان بيروتون وبونسو في تونس ومراكش. ولست أتفاءل بالظروف خيرًا وهي إنَّما تأتي على مقاديرهم لا على مقاديرنا ما دمنا نسير على قواعد سياسة سلبيّة خاطئة تهيب بنا أن نصطدم بهم في المسائل الإيجابية وهي في الواقع ليست إلاَّ حماقة تلازم الضعفاء ولا تقوى على قمع الغارة الاستعمارية،

فقد أفحش مونسورن ولوسيان سان في تنفيذ مشروعات سياسة التجنيس والتنصير بتظاهرات مزعجة أيقضت مضاجع الخاملين من المؤمنين وحرّكت خوامد نفوسهم بما أوجب إزاحتهما عن القطرين، فهل يعمد حليفاهما لنقض تلك المشروعات الآنفة ويعدّلانها بما هو أقرب منّا لا منها للتساهل، ولا أتساءل عن غيرها؟

ـ كلا وأبيكَ! فإنَّ كلّ ما سيأتينا به بيروتون أنه سينشئ في تونس مقابر خاصّة بالتجنيس، ولكن سياسة التجنيس ستبقى فاغرة فاها تلتهم الذاتيّة التونسية حتّى لا يبقى في البلاد وطني ولا وطنيّة، وسيوعز المنافقون بأنَّ المقيم الجديد قد توفّق بعبقريّته النادرة لإيجاد حلّ موفّق لهذا المشكل الذي ارتطمت على صخرته البلاد مدّة عشر سنين كاملة، ويعود التونسيون بعد ذلك في اطمئنان تامّ إلى غطيطهم الأول وينسون بعد ذلك كلّ شيء.

وسيعمل بونسو من ناحيته بكلّ ما أوتي من مكر وحيلة لإرضاء سلطان المغرب ولو بقلب ضخم جديد وهو يرضيه كلّ شيء، حتّى تلك الابتسامة الصفراء، وسيعوّض عليه هذا اللقب ما فقده من السلطان الشرعي على بلاده وإخراج رعاياه من البربر عن دينهم. وغير مستبعد أن يكون هذا اللقب خليفة المسلمين في شمال أفريقيا ويكون هذا السلطان الخليفة الملهاة يسخر منها الفرنسيون ويسخّرونها لهدم ما بقي للإسلام في تلك البلاد بالنصّابين والمحتالين من مشايخ الطرق والمتفقّهة ومن حولهم المرتزقة يهلّلون ويكبّرون لعود عصر الخلافة الإسلامية إلى نصا[illegible] في المغرب الفرنسي.

أمّا تغيير المنهاج الاستعماري بمنهاج يليق بالكرامة والشرف والحقّ العامّ وتوسيع الحرّيات السياسية في شمال أفريقيا وترفيه أهاليها وتعليمهم، فذلك يعادل كلمة "مستحيل" التي كانت لا توجد في قواميس اللغة الفرنسية.

وكيف يمكن لمحتلّ فرنسي في إحدى مستعمرات فرنسا أن يخرج عن سياسة تقليدية راسخة تسير عليها حكومته منذ قرن كامل وهي ترمي بها إلى جعل أقطار

شمال أفريقيا إفرنسية لحمًا ودمًا وجنسًا ودينًا وأدبًا ولغة ويسووهم أن يكون احتلالهم أقلّ إنتاج من الفتح الإسلامي وهم يريدون أن يتّخذوه ويتفوّقوا عليه لا في الحدب والإحسان على الأهليين ولكن في الامتصاص والتحويل لا من طريق الإقناع والرضا ولكن من طرق الطغيان والإرهاق.

فتح العرب لجنوب أوروبا:

ليس لديّ الوثائق الكافية التي يمكن الرجوع إليها في تدوين هذا القسم العظيم من تاريخ صدر الإسلام في شمال أفريقية فقد عنيت به قبل عشرين سنة، وجمعت عنه وثائق ومستندات مهمّة من المصادر العربية والإفرنجية إسبانية وفرنسية وقد تركتها مبعثرة بين أوراقي في تونس يصعب على غيري الاهتداء إليها. ولكن ما يُدرَك كلّه لا يُترك أقلّه. وقد رأيت أن أضع بين يديك نتفًا من محفوظاتي عسى أن تكون لك فيها غنيمة وقد يمكنك أن تحلّ غوامضها بمراجعة المصادر القيّمة للتاريخ الأوروبي.

الشيخ عبد العزيز الثعالبي

سيّدي الأستاذ أطال الله بقاءه:

أخذت كتابك الفيّاض بلطفه وبعلمه وقرأته مرّتين وثلاثة متأمّلاً في كلّ حرف منه. أمّا الفصل التاريخي الذي فيه فتوحات العرب في جنوب أوروبا فقد بعثت به لأجل نشره في آخر كتابنا بهذا الموضوع وذكرت أننا جعلنا هذا الفصل قلادة في جيد كتابنا[1]. والمعلومات التي حرّرتموها لا تخرج عمّا ذكرناه نحن، ولكن في كلامكم نكات وفوائد لم نكن اطّلعنا عليها ستلحق بكتابنا أيضًا فصلاً خاصًا بفتح مالطة لأننا كنّا نسيناهم إلاّ ما جاء في عَرض الكلام.

من جهة المسألة الطرابلسية كلّما ذكرتموه هو عين الواقع ومن حيث أنَّ عندكم حاضر العالم الإسلامي فما عليكم إلاّ أن تطالعوا ما فيه عن طرابلس فهناك أكثر من تسعين صفحة بل ذكرنا جميع ما ورد فيه عن طرابلس في المجلّدين (الأول والثاني بلغ ١٢٠ صفحة) وكلّها تطابق معلوماتكم تمام المطابقة إلاّ أنكم أنتم، نظرًا لكون مكتوبكم محدودًا، اختصرتم الكلام بطبيعة الحال. فأنا لست أجهل شيئًا من مآرب إيطاليا في طرابلس كما لا أجهل شيئًا من مآرب فرنسا في الجزائر وتونس ومراكش، وجميعنا لا نجهل هذه الأمور وقد أصبح أكثر المسلمين يعلمونها فكيف لا يعلمها من هم مثلك ومثلي لا شغل لهم إلاّ بهذا؟ نحن يا سيّدي ما قصدنا سوى تخفيف الشرّ بقدر الإمكان، ولم نكن البادئين بالمكالمة بل عندما رأيناهم أي الطليان بدوا أجبناهم وفصّلنا لهم بإطناب جميع مضار سياستهم في طرابلس بهم وبالأهالي معًا وأقنعناهم بأنَّ هذه المضرّات ليست أدبية فقط بل مادّية أيضًا وأنهم إن كانوا يريدون الاستعمار والكسب فلا يمكنهم أن يصلوا إلى شيء من ذلك إذا كانت البلاد خالية من الأهالي، لأنَّ إيطان مئات ألوف من أبناء جنسهم في ليبيا ليس بأمر سهل لما يقتضي من النفقات، فإنَّ المستعمر لا يقدر أن يعيش بمجرّد وجود

(١) لم يشر شكيب أرسلان مثلما ذكر، إلى الشيخ الثعالبي في الكتاب الذي نشره. راجع شكيب أرسلان ـ تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزر البحر المتوسّط، مطبعة عيسى الباي الحلبي وشركاه، مصر، ١٩٣٣.

الأرض له. وهنا قالوا لي إنّهم قد أنفقوا الملايين وما وصلوا إلى نتيجة تذكر وقالوا لي إنَّ جميع من دخل الجبل الأخضر من المستعمرين الطليان هم ١٨٠ رئيس عائلة فإذا ضممنا لكلّ منهم أربعة أو خمسة أنفس فهذه ألف نفس وقد تكلّفوا عليهم الدواهي، فكيف إذا كانوا مئات ألوف وقالوا إنَّهم لا يجهلون ضرورة وجود العرب هناك وإنّه بدون العرب يتعذّر الشغل. والحاصل أني اجتهدت بقدر إمكاني أن أقنعهم بأنهم إذا كانوا يريدون التقارب مع المسلمين فلا يكفي في ذلك ما يظهرون من العطف على قضيّة سوريا ولا ما يبدون من العطف على حكومة العراق، فإنَّنا لا ننكر كون إيطاليا وقفت في المسألة السورية وفي المسألة العراقية موقفًا محمودًا عندنا ونحن شكرناها على ذلك. ولكن لا يمكن العرب أن يقولوا، ولا في مكان ولا في زمان، إنَّ مسألة طرابلس لا تهمّ بل لا يقدرون أن يسمعوا أنين عرب طرابلس ويكونون ساكتين. قلنا لهم من هذا المعنى ما يلزم وهم أجابوا بأشياء كثيرة ووعدوا بإصلاح كثير من الأمور ولكن مع الاحتزاز وعلى قاعدة التدرّج. ومن أول الأمر قالوا إنّهم لا يقدرون على إرجاع عرب الجبل الأخضر دفعة واحدة خوفًا من الثورة، ومن الأمس قالوا إنَّ العسكرية يعارضون معارضة شديدة ولا يأخذون هذه المسألة على عهدتهم، ولكن إذا سكنت الأحوال وارتفع الخوف من تجديد الثورة فإنَّ كلّ هؤلاء يعودون إلى محلاّتهم. ونحن أجبناهم بأننا نرضى بإعادتهم إلى محلاّتهم ولو في خمسة أو ستّة أشهر وأننا نكفل لهم عدم حصول الثورة لا لأننا أخذنا من العرب تعهّدات كهذه بل لأننا عقلاء ونعرف عدم وجود هذا الاستعداد عند العرب فقد ملّوا وتعبوا وصار جلّ مبتغاهم السكون والإستراحة بعد كلّ المصائب التي حلّت بهم. وبناءً على نصائحنا لإيطاليا وتكراراتها وتعهّدنا بأننا سنتّخذ بإزائها خطّة غير الأولى، بدأ الطليان يعيدون بعض القبائل تدريجيًا وقد أعادوا جانبًا من العبيدات وأسكنوهم شرقي زاوية مرطوبة وقد أعادوا قبيلة المنفا والقطعان وأسكنوهم بين السلوم وطبرق في أماكنهم الأصلية. ومن قال لك خلاف ذلك فلا تصدّقه أصلاً. أمران لا ينبغي أن نتوقّعهما

أولهما أنَّ الطليان يصدقون في كلّ ما وعدونا إيَّاه والثاني أنَّ العرب يعترفون بحصول أدنى تهوين من الويلات التي هم فيها. ولكن الحقيقة لا يمكن أن تختفي وكون إيطاليا أعادت قسمًا من العرب الذين كانوا محصورين في غربي بنغازي هذا وقع بالفعل، ونفس الأمير إدريس السنّوسي كتب لسموّ الأمير عمر طوسون الذي رجوته البحث عن هذه المسألة كما رجوتكم يقول له إنَّ العرب الذين أعيدوا عدد قليل من المنفا والقطعان والعبيدات وإنَّهم لم يعادوا إلى الجبل الأخضر بل إلى أرض البطنان بين مرطوبة والسلوم، وقال له في مكتوب أرسله الأمير عمر إلينا إلى هنا إنَّ الجبل الأخضر لم يرجع إليه أحد من العرب وإنَّ المعاملة لا تزال سيّئة مثل ذي قبل وإنَّ تعليم الأولاد ليس تعليمًا إسلاميًّا كما يقولون وغير ذلك من الأمور.

فنحن بعد أن جاءنا هذا المكتوب ضمن مكتوب من الأمير عمر طوسون أخذنا خلاصة وبدون أن نسمّي المصادر التي استقينا منها هذه المعلومات جعلنا ذلك في مكتوب وأرسلناه إلى روما للوسيط الذي جاء وواجهنا وطلبنا منه الإيضاح عن هذه المسائل وقلنا له ليس هكذا كان الوعد، وطلبنا منه إذا أمكنه أن يأتي ويواجهنا حتّى يتيسّر لنا أن نشيع الموضوع بالمفاهمة فالرجل الوسيط كتب لنا جوابًا، منذ جمعتين وضِمنُه بلاغ رسمي عن القبائل التي أعيدت إلى البطنان من منفى وقطعان وعبيدات وعن إعادة ثلاثة آلاف من قبيلة الدرسة التي أعيدت إلى أوطانهم في نفس الجبل الأخضر وهي جبهة ميتة وفي البلاغ يقول إنَّه سيصير العفو أيضًا عن قبيلة البراعصة وإرجاعها إلى أراضيها في الجبل الأخضر أيضًا.

فأنا أرسلت هذا البلاغ إلى الأمير عمر طوسون ورجوته أن يتكرّم بإتمام التحقيق عن هذه المسألة لأنَّ كلّ جهة تقول شيئًا يخالف كلام الأخرى. فأمَّا نقطة إرجاع المنفا والقطعان والعبيدات فقد وقع الاتّفاق عليها من الجهتين غير أنَّ السيِّد السنّوسي يقول إنَّ الذين جرت إعادتهم ليس فيهم أحد من ذوي الأهمّية، وإنَّ بعضهم لم يعيدوه إلى أراضيه بل إلى أرض أخرى لا فائدة منها، وإنَّ الجبل الأخضر ما دخله حتّى الآن أحد من العرب بل الطليان وحدهم متصرّفون به.

والحال أنَّ البلاغ الإيطالي يذكر إعادة ثلاثة آلاف من الدرسة إلى طليّة وهذه نحن نعرفها بلاد واقعة ضمن الجبل الأخضر فرجونا سموّ الأمير عمر أن يسأل لنا الأمير السنّوسي عن قضيّة الدرسة لأنه يستبعد عقلنا أن يكون بلاغ رسميّ صرّح بإعادة الدرسة ولا يكون لذلك أصل، وهذا البلاغ نفسه يقول إنَّ البراعصة لم يرجعوا بعد وإنَّما ستصير إعادتهم إلىأوطانهم. وبينما نحن ننتظر جواب سموّ الأمير بشأن إكمال التحقيق عن هذه المسائل جاء الوسيط من روما إلى جنيف بحسب طلبنا وبحثنا معه في كلّ شيء، وكانت خلاصة أجوبته ما يأتي:

أولاً - إنَّ كلّ من يقول بأنَّ الحكومة الإيطالية لم ترجع أحدًا من العرب إلى وطنه يكون مكابرًا في المحسوس فقد أرجعت ألوفًا إلى أوطانهم التي كانت لهم من قبل، وتحقيق هذا ممكن غير أنَّ أناسًا من أعداء إيطاليا لا يزالون يكذّبون هذه الأخبار لأجل التشفّي.

ثانيًا - إنَّه من الأول عارض رجال العسكرية في إرجاع جميع العرب دفعة واحدة إلى أوطانهم، وقالوا إنَّهم لا يأخذون على أنفسهم مسؤوليّة هذا الأمر، وإنَّ الحكومة المركزية في روما لا تستطيع كسر كلمة العسكرية ولكن العسكرية نفسها تقول إنَّها لا تعارض في رجوع هؤلاء العرب إذا كانت الراحة قد استتبّت ولم يبقَ خوف من تجدّد الثورة.

ثالثًا - إنَّ الحكومة أعادت الدرسة إلى نفس الجبل الأخضر لأنها وجدت بعد التحقيق العميق أنهم لم يبقَ عندهم سلاح وأنها ستعيد البراعصة إلى محلاّتهم بعد أن تتحقّق أنه لم يبقَ في أراضيهم شيء من الأسلحة المخبّأة.

رابعًا - إنَّ الأراضي الخاصّة التي كانت في أيدي الأهالي لم تتعرّض الحكومة لها وإنَّما تعرّضت للأراضي المشاع وجعلت فيها مستعمرين من الطليان، وأنَّ كلّ المستعمرين الطليان في الجبل الأخضر ١٨٠ مستعمرًا وهم وعائلاتهم بالكثير ألف نسمة.

خامسًا ـ إنَّ الحكومة الإيطالية ألغت الطريقة السنّوسية لأنه لا يمكن أن ترضى بيقائها بعد أن حاربتها عشرين سنة وكانت هي السبب في هذه الحرب من أولها إلى آخرها، ولذلك وضعت الحكومة يدها على الزوايا وأوقافها.

سادسًا ـ إنَّه لا صحّة لكون التعليم الجاري هناك تعليمًا مسيحيًا فإنَّ الدعاية المسيحية غير موجودة في جميع طرابلس وبرقة ولا يوجد واحد مسلم متنصّر ولا يوجد في المكاتب المؤسّسة لأولاد المسلمين تعليم ديني مسيحي، نعم إنَّه تعليم عصري ضروري لمن أراد أن يعيش في هذا العصر.

سابعًا ـ إنَّ عدم فتح الحدود بين برقة ومصر وهو بناءً على طلب العسكرية الذين لا يزالون يخشون الحوادث ولكن إذا استتبّت الراحة فلا بدّ من فتح الحدود.

ثامنًا ـ إنَّ الحكومة الإيطالية ترغب في إرجاع البرقاويين الذين في مصر إلى بلادهم وسفارة إيطاليا مستعدّة لدفع كلفة السفر لمن يريد الرجوع، ولكن المفسدين لا يزالون يهيّجون الناس على إيطاليا ويزعمون مزاعم لا صحّة لها عن عسفها وظلمها للمسلمين، إلخ.

هذه خلاصة المجلس الذي جرى بيني وبين هذا الوسيط وأنا جاوبته بما ملخّصه:

أولاً ـ إنَّ الأراضي المملوكة لأصحابها لا يجوز لإيطاليا أن تتصرّف بها ولا أن تسلب أحدًا من ذوي الأملاك لا سيَّما بعد أن انتهت الثورة وأعلنت إيطاليا انتهاءها. هذا مع كون الذين كانوا ثائرين من الأهالي لم يتجاوز عددهم بضع مئات.

ثانيًا ـ الأراضي المشاع (Collectif) لا حقّ لحكومة إيطاليا بضبطها بل هي خاصّة بالأهالي وعلى الحكومة أن تقسّمها على رؤوس الأهالي فيصيب كلّ منهم نصيبه ويتصرّف به كما يشاء فإن أراد الطليان أن يستعمروا فعليهم أن يشتروا من الأهالي بالمتر.

ثالثًا ـ إنَّ الزوايا السنّوسية وأوقافها ليست خاصّة بالبيت السنّوسي بل هي مساجد ومعاهد دينية وأوقافها كلّها هي من تبرّعات الأهالي، وهذه الزوايا لها

وظيفة أخرى أيضًا وهي أن تكون معَدّة للمسافرين وعابري السبيل فالقبائل هناك لا تستغني عنها، فإذا كانت إيطاليا ألغت الطريقة السنّوسية فلا يمكنها أن تلغي الدين الإسلامي ومساجده ولا أن تأخذ أوقاف هذه المساجد غصبًا بل يجب عليها أن تبقى هذه الأوقاف مربوطة بالمساجد بحسب شروط الواقفين، وأن تنظر إلى هذه الزوايا كسائر الجوامع والمعاهد الدينية الإسلامية وإن كانت تخشى تدخّل أئمّة هذه الزوايا في السياسة فهي تقدر أن تراقب ذلك وليس بضروري أن تلغي الزوايا نفسها وتضبط أوقافها وتعطيها للمستعمرين الطليان بحجّة أنّ الزوايا السنّوسية كانت هي مصدر الحرب.

رابعًا ـ إنَّ تعليم الأولاد إن كان عصريًّا أو غير عصري فلا بدّ من أن يكون فيه تعليم العقيدة الإسلامية واللغة العربية لأننا لا نريد أن يخرج أولادنا طليانًا، وكما لا نريد أن يخرجوا نصارى لا نريد أيضًا أن يخرجوا ملحدين.

خامسًا ـ إنّنا ننتظر إرجاع البراعصة والعرف والعبيد وسائر قبائل الجبل الأخضر إلى الجبل الأخضر.

سادسًا ـ إنّنا ننتظر فكّ الحصار الواقع على تلك البلاد وفتح الحدود بينهما وبين مصر.

سابعًا ـ على سفارة إيطاليا في مصر أن تستجلب المهاجرين بالحسنى وتسهّل لهم أسباب رجوعهم إلى أوطانهم وأنَّ أكثرهم مستعدّون للرجوع بشرط أن تتغيّر المعاملة الحاضرة وتتخيّل أنَّ كثيرًا من رجعوا قد ندموا على رجوعهم. ويجوز أنَّ المأمورين للرجوع بشرط أنَّ الطليان يكونون قد خدعوا الحكومة المركزية في روما ورووا لها خلاف الواقع فلا ينبغي للحكومة المركزية أن تصدّق هؤلاء المأمورين في كلّ ما يقولونه.

هذه خلاصة جوابي وقد وعدني هذا الرجل بتقديمها إلى المقام الأعلى عندهم كما وعدني بإرسال صورة "بروغرام" التعليم حتّى يثبت لي بزعمه أنَّ الأولاد

يتعلّمون العقيدة الإسلامية واللغة العربية. فانا أسأل سيّدي الأخ: في حالة مثل هذه الحالة ماذا يراه الأنسب لنعمله؟ أنا أريد رأيه ورأي سائر عقلاء المسلمين والمفكّرين منهم، كلّنا يريد أن مسلمي طرابلس يتغلّبون على الطليان ويطردونهم من جميع تلك البلاد فهل هذا ممكن؟ فإن كان هذا غير ممكن فما العمل إذن؟ هل يكفي نشر المقالات في الجرائد والطعن في سياسة إيطاليا وفضائحها؟ فإن كان هذا أيضًا غير كافٍ بل غير بالغ بنا أربًا فما الطريقة؟ أريد من إخواني جميعًا أن يجيبوني ما الطريقة العملية لإغاثة مسلمي طرابلس في هذا الضنك الذي نجدهم فيه. إنّنا جميعًا نعلم أنَّ مسلمي طرابلس أصبحوا غير قادرين على إحداث ثورة إذ لم يبقَ لهم أدنى قوّة فلا مال ولا سلاح ولا طعام ولا شيء من الأشياء التي يتمكّنون بها من القتال.

وإنّنا نعلم أيضًا أنَّ العالم الإسلامي كلّ بلاد منه مشغولة بنفسها وبسدّ فتوقها وملافاة مصائبها ولو دعونا العالم الإسلامي لمعاونة الطرابلسيين بمال أو سلاح أو أيّ شيء آخر لم نجد مجيبًا بل لو أنَّ الطليان قتلوا جميع مسلمي طرابلس السبعمائة ألف الباقية وأجلوهم بأجمعهم وضبطوا جميع أملاكهم بأجمعها ما كان لنا أن نؤمل من جهة العالم الإسلامي أدنى حركة إلاَّ الصريخ والأنين والشكوى في بعض جرائد، كان عندنا في هذه الأيام الأخ شكري بك القوّتلي[1] من رؤوس مفكّري سوريا وهو من الحمية الإسلامية بالمقام الذي لا يخفى فسألته عن رأيه في هذا الموضوع فقال لي هكذا: مع الأسف لا أدري المسلمين قادرين أن يعملوا شيئًا لعرب طرابلس مهما بلغ من ظلم الطليان إيّاهم بل لو استأصلهم الطليان بأجمعهم لا نرى أنفسنا قادرين في الوقت الحاضر على دفع هذه المصيبة. إنَّ سلاح الضعفاء الوحيد هو مقاطعة البضائع فهذه أيضًا لم يقدر عليها المسلمون. مضت

---

(١) شكري القوّتلي، (١٨٩١ ـ ١٩٦٧). أول زعيم وطني تولّى رئاسة الجمهوريّة السورية، دمشقي المولد والأسرة، تخرّج بالمدرسة الملكية بالأستانة وبعد عودته دخل في الجمعيّة (العربية الفتاة). زجّ به الأتراك في السجن خلال الحرب العالمية الأولى. سنة ١٩٢٠ عندما احتلّ الفرنسيون سوريا حكم عليه غيابيًا وبقي بمصر ثمّ بحيفا إلى نشوب الثورة السورية سنة ١٩٢٥ فكان أهمّ أركانها. تولّى وزارة المالية سنة ١٩٣٦ واستقال منها سنة ١٩٣٨ لينتخب نائبًا لرئيس مجلس النوّاب. وانتخب سنة ١٩٤٣ رئيسًا للجمهوريّة السورية. وثار عليه حسني الزعيم فأكرهه على الاستقالة، واستقرّ بالإسكندريّة وعاد مرّة أخرى لينتخب للمرّة الثانية رئيسًا للجمهوريّة في أوت/آب ١٩٥٥ وبادر بالوحدة مع مصر سنة ١٩٥٨.

علينا سنتان ونحن نصيح وندعوهم إلى مقاطعة كلّ شيء طلياني البضائع والبواخر وكلّ ما يتعلّق بإيطاليا، وبرغم كلّ مجهوداتنا لم نحصل من ذلك على شيء لأنّ العالم الإسلامي هو غير سائر العوالم فالإحساس فيه منحصر في طبقة قليلة جدًّا لا تبلغ واحدًا في الألف. نعم هذه الحرب الاقتصادية وهي الحرب الوحيدة التي يقدر عليها الضعفاء لم نقدر عليها نحن. ولو أننا قدرنا عليها فعلاً وقوطعت بضائع إيطالية في كلّ قطر من أقطار الإسلام وكفّ المسلمون بأجمعهم عن السفر إلى إيطاليا وعن طريق إيطاليا وفي بواخر إيطاليا لكنت تجد في طرابلس معاملة غير هذه المعاملة وكانوا يتزلّفون إلى المسلمين بالأفعال لا بالأقوال. وكانوا إذا وعدوا وعدًا أنجزوه في الحال. أمّا ونحن كما نحن فلم أجد طريقة خيرًا من هذه الطريقة التي أنا سائر عليها، وهي السعي في تخفيف ضنك المسلمين هناك بقدر الإمكان. فإنّ الحكومات الإسلامية كما أنت تعلم لا تبدي ولا تفيد في موضوع إسلامي وهي لا تكاد تدافع عن إسلام المسلمين من رعاياها فكيف تدافع عن مسلمي طرابلس الذين صاروا من رعايا إيطاليا فلم يبقَ سوى الاشخاص غير المسؤولين من ذوي الحمية الإسلامية الذين يشتغلون بالدفاع عن الإسلام ولمّا كنت أعلم أنكم والأخ عبد الرحمن بك عزام في مقدّمة هذه الطبقة لم أشا الإتيان بحركة قبل مشاورتكم لأنّ الإنسان ضعيف بنفسه، قويّ بإخوانه.

وقد كتبت إلى الأخ البشير السعداوي في دمشق وإلى قاضي السلط[1] وهو من طرابلس أيضًا، هذا فضلاً عن كتبي إلى لأمير عمر طوسون الذي كان يطلع عليها الأمير إدريس السنّوسي. وفي كلّ هذه الكتب أسأل ما الطريقة الفعّالة للتنفيس من خناق المسلمين في طرابلس؟ والأجوبة تأتيني: إنّ هؤلاء الطليان كذبوا ولن يفعلوا شيئًا ولن ينجزوا ما وعدوك به شيئًا ولا يزالون على ما كانوا عليه من ظلم المسلمين وإرادة محوهم واستئصالهم إلى غير ذلك. فأقول إذا كان الأمر كذلك فماذا أصنع؟ هل عندنا وسائل للمقاومة غير معروفة عندي؟ فإذا كانت ثمّة

(١) قاضي السلط، ويقصد به سليمان الباروني.

وسائل تغنيني عن مراجعة الطليان فأحبّ الطلاع عليها حتّى أقطع في الحال هذه المفاوضات الخصوصية، وإن كان لا يوجد شيء أفلا يكون الأحسن تفادي الضرر الأشدّ بالضرر الأخفّ وإقناع إيطاليا بأنَّ تغيير معاملتها هذه مع المسلمين يكون أوفق مصلحتها والسعي في إرجاع العرب إلى أراضيهم تدريجيًّا والسعي في المحافظة على العقيدة الإسلامية واللغة العربية وغير ذلك من الأمور التي إن لم ننلها بأجمعها أمكننا أن ننال بعضها، ولي أمل مع طول البال أن ننال أكثرها وبعد ذلك نتربّص بهؤلاء القوم حوادث الدهر فنستفيد من أول حادثة تقع. هذا أراه أنا هو أحسن سياسة ممكنة في الوقت الحاضر وهي منحصرة في تخفيف الضرر بقدر الإمكان وفي التربّص والصبر حتّى تلوح الفرصة من خلال حوادث الدهر. ومن الغريب أنَّ إخواننا في الشام من الطرابلسيين كانوا كلّفوني مرارًا منذ بضع سنوت أن أتوسّط بينهم وبين إيطاليا على أساس التعاون بين الأمّتين وأنا أجبتهم ومكاتبي موجودة عند الأخ البشير السعداوي فقلت لهم: إنَّ دخولي في التوسّط لا يوافق المصلحة لأنَّ موسوليني يستدلّ منه على أنني أنا المحرّك للثورة الطرابلسية، وإنَّ سيادتي هي أن أحرّك من جهة وأعود فأتوسّط بالصلح من جهة أخرى لأحصل على شروط أكثر موافقة، وإنّي أرى الأولى بهم أن يراجعوا إيطاليا رأسًا وأنا من هنا أمدّهم بالآراء والمعلومات. ومعنى كلامي هذا أنهم هم شاعرون بالاحتياج إلى طريقة حلّ سليمة عارفون بأنه لا يوجد أمل في الوقت الحاضر لإخراج إيطاليا من طرابلس، وأنَّ قصارى ما نقدر أن نؤمله هو الحصول على حقوق محلّية وعلى المساواة مع الأجانب وعلى حفظ الملكية والعقيدة واللغة. ثمَّ بهذه السنة نفسها أرسلوا لي من دمشق صورة معروض قدموه إلى ملك إيطاليا. وهو يؤيّد الفكرة التي نتكلّم عنها أي أنَّ التفاهم مع الطليان كانوا هم يدعوننا إليه. فلمّا جاء وسيط من إيطاليا يبادينا بالمفاوضة في قضيّة التأليف بين المسلمين والطليان وإزالة أسباب العداوة تدريجيًّا وكتبنا إليهم نوقفهم على حقيقة هذه المفاوضة ونطلب رأيهم فيها لأنهم هم أصحاب البلاد والأولى بشؤونها من سواهم، لحظت منهم أنهم لم

يكونوا مسرورين وكان جوابهم بأنَّ الطليان لن يعملوا شيئًا ولن ينجزوا من هذه المواعيد شيئًا وأنَّ فضائحهم هي كذا وكذا. يقولون هذا الرجل سوّد مائة صفحة من حاضر العالم الإسلامي عن أفعال الطليان في طرابلس ومآلها كلّها كون دولة إيطالية تريد محو الإسلام من ليبيا فأنا لا يلزمني من يزيدني من هذا الموضوع ولكن يلزمني من يشير عليّ برأي هو أحسن من الرأي الذي اجتهد في تطبيقه الآن. فإنّي لا أرى فائدتنا من استمرار القذف والطعن في الجرائد بقدر فائدتنا فيما لو تمكّنا من تخفيف هذه الأضرار الواقعة على إخواننا في طرابلس وبرقة. إنَّ رجوع قبيلة واحدة إلى وطنها وإنقاذها من الإنقراض التامّ بالتغريب والتشريد هما أنفع للإسلام من ألف مقالة طعن بحقّ إيطاليا.

أمّا ما ذكرتموه لي من أنَّ صاحب جريدة الترقّي الطرابلسي كتب إلى أناس من الصحفيين في تونس بأنني أنا أساوم إيطاليا على طرابلس وما أشبه ذلك فهذا قد كان اتّضح لي شيء منه، وهو كما قلتم دسيسة موحى بها من الطليان ومن بعض الطليان يقصدون بها إسقاط تأثير كلامي وإقناع المسلمين بأني كنت أدافع عن مسلمي طرابلس لأجل أغراض شخصيّة لا حميّةً على الإسلام. ولإيطالية في طرابلس عمّال وجواسيس وأناس تشتريهم لأجل بثّ سياستها ودول الاستعمار بأجمعها عندها هذه السياسة كلّما رأت وطنيًا قاومها مقاومة شديدة وكان لكلامه تأثيرًا أرسلت في السرّ إلى قومه ما يفيد، أنَّ هذا الوطني له عادة أن يأخذ منها دارهم. تحاول بهذه الافتراءات أن تثلم شرف هؤلاء الوطنيين وتسقط منزلتهم من القلوب. وهذا أنا لا أخشى منه لأنني غير عاجز عن إظهار الحقائق وإدحاض الأباطيل، ولست بإشاعات كهذه أرجع عن الخطّة التي اعتقدها تفيد قومي. وقد سمعت أنَّ الجنرال قرازياني [1] نفسه كتب مقالة طعن بحقّي تحت إمضائه لكنّي لم أطّلع عليها. وفي العددين الأخيرين من مجلّتنا لا نسيون آراب [2] نشرنا بعض

(١) الجنرال قراتزياني: قائد الجيوش الإيطالية بليبيا. في مدّته تمّ احتلال الكفر والقبض على الشهيد عمر المختار وإعدامه.

(٢) البلاغات التي نشرت هي "إيطاليا والعالم العربي" بمجلّة "الأمّة العربية"، ٤ و٥ ماي/جوان ١٩٣٣.

بلاغات رسمية عن التدابير الجديدة التي اتّخذتها إيطاليا بشأن المسلمين في ليبيا وهذه البلاغات أرسلوها إلينا من روما ونحن نشرناها قصدًا وعمدًا لنثبت لإيطاليا أننا من الأول إلى الآخر لم نكن قاصدين عداوتها مجّانًا وأننا ما عاديناهم إلاّ بعد أن لم يبقَ في نفس الصبر منزع، ثمَّ أشرنا إلى أنَّ هذه البلاغات إن كانت صحيحة وجرى تطبيقها فنكون شاكرين ثمَّ اعترضنا على وضع قسم من العرب شرقي مرطوبة على حين كان يجب إعادتهم إلى نفس الجبل الأخضر ثمَّ حرّرنا في العدد الأخير[1] مقالة نتعرّض فيها على كون الحكومة الإيطالية تريد تسليم الأراضي التي انتزعتها من العرب إلى مستعمرين طليان وأنَّ هذا لا يليق بها. سألتموني رأيي في سفركم إلى الشرق الأقصى وحيث طال هذا المكتوب كثيرًا فسأكتب لكم ما أراه في هذا السفر في البريد القادم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شكيب أرسلان

---

(1) العدد الأخير من من مجلّة "الأمّة العربية"، ٧ ـ ٨ و٩ جويلية ١٩٣٣، ص. ٢٦، حول "الجبل الأخضر".

القاهرة في ٩ أكتوبر ١٩٣٣

رسالة رقم ١٤

أخي الأمير الجليل أعزّه الله:

أكتب إليك وليس في مستطاعي الإطناب فيما استعرضه هذه المرّة من المسائل وأنا على جناح سفر. فسأغادر القاهرة إلى بور سعيد، أصل يوم الثلاثاء المقبل (٣١) الشهر الجاري في أول باخرة تقوم إلى عدن. وقد أحاول في هذه الرحلة أن ألم بحضرموت إن مكّنتني من ذلك حكومة عدن. فإنَّ القنصليّة البريطانية في مصر توقّفت عن التأشير بذلك على الجواز فقالت هذا من اختصاص حكومة الهند، فما وسعني بعد الجهد العنيف إلاَّ الإذعان وإذا حالت عدن دون تحقيق هذه الرغبة فسأقصد الهند وأمري إلى الله.

وكنت عازمًا على الشخوص إلى بلاد الأفغان ولكن سفيرها في مصر الشيخ المجددي أشفق عليّ من معاناة ما ينزل فيها من صقيع وثلج فامتنع من وضع الفيزا[1] على الجواز فسقط في يدي، وربّما أطلبها مرّة أخرى من قناصل الأفغان في الهند عساني أتمكّن من الدخول في هذه البلاد المغلقة في وجوه الروّاد من المسلمين وإن أخفقت فحسبي أني سعيت ولم أوفّق. زارني الأستاذ عبد الرحمن عزام منذ ثلاثة أسابيع فأطلعته على رسالتك الأخيرة ووعدني بأنه سيكتب لك برأيه في المسألة الطرابلسية مع إيطاليا، أمّا الوسيط الطلياني الذي يتردّد عليك فلست أحسبه إلاَّ مهرّجًا وإن بدا لك في أيّ صورة من الصور الأخّاذة المغرية لأنَّ أغلب ما تحدّث به إليك وأشرت إليه في كتابك الأخير غير مقارن للصحّة إن لم أقل فيه إسفاف كثير.

والواقع أنَّ رأيك في الإيطاليين هو رأيي أيضًا وقد يطابقونا عليه أغلب السواس المسلمين الذين يتتبّعون السياسة الاستعمارية الدولية، وممّا لا شكّ فيه اتّفاق الرأي على السياسة الإيطالية أشدّ وطأة على المسلمين من غيرها، وأنا أقرب لليأس منها

---

(١) الفيزا وهي كلمة فرنسية وانقليزية وتعني التأشيرة.

منّي للرجاء وإن كان في تحوّلها في الإمكان وهو من مصلحتها لو كانت المصالح السياسية تجري على منطق الحوادث على المؤامرات والاتّفاقات السرّية بين الدول.

فقد أخفقت إيطاليا إخفاقًا بيّنًا في استعمار طرابلس الغرب على أيدي الإيطاليين وذهبت رؤوس أموالهم، فإنّ طائفة من أغنياء الجالية الطليانية في تونس كانوا نقلوا جانبًا وافرًا من رؤوس أموالهم إلى طرابلس لاستثمارها في الاستعمار الزراعي فذهبت مع فوائدها بسبب قلّة المياه وقلّة المحصولات ومن بين هؤلاء المالي الكبير سنيور (كالو)[1] فقد جرّ عليه الشره الاستعماري في طرابلس خسارة تقدّر بعشرين مليون فرنكًا بعد أن أفاد من تونس في نحو عشرين سنة نحو خمسين مليون فرنكًا وهو اليوم مهدّد بالإفلاس وغيره وغيره... كثير...

وقد يلوح لي من هذه الناحية أنّ الاستعمار الطلياني في طرابلس مستهدف للخطر ما لم تبادر السياسة الإيطالية لإصلاحه وإحكامه بصورة تكفل تبادل الثقة بينهما وبين الأهالي بحيث تعتمد في تعمير البلاد على جهودهم الجبّارة وصبرهم الذي ليس له نفاذ، وإلاّ فهو آيل إلى الإفلاس المحقّق. عند ذلك تنهار القصور الشامخة التي شيّدها الإيطاليون في إسبانيا ولكن بدون أن يحرّك الطرابلسيون في تقويضها ساكنًا وهذا ما ينبغي لك أن تظهره لمن يتّصل بك من سواسهم لعلّهم ينتبهون. بعث إلى السنيور (منطير) كتابك دون أن يتفضّل بزيارتي وأنا لم أجد وقتًا لملاقاته في فندق (ناسيونال) الذي نزل فيه. ولست أكتمك فإنّي ما زلت على حذري من تصديق مزاعم الأوروبيين في ولائهم للشرق المسلم ما لم يقدّموا لنا على ذلك شواهد مادّية قاطعة تستحقّ الاطمئنان والأقلّ من ذلك من قيامهم في مصافنا لمقارعة ظلم حكوماتهم لنظهرها من المسلمين، فكيف بهم إذا كانوا يسندونها ويلتمسون لظلمها المعاذير فهل يجوز لنا تلقاء هذه الحالة أن نتجرّد من عقولنا ونقبل منهم مهزلة الولاء، وهم ليسوا في الواقع إلاّ مهرّجين يريدون أن يأخذوا منّا كلّ شيء ولا يعطوننا شيئًا...

---

(١) السينيور كالو من أثرياء الجالية الإيطالية بتونس.

كنت أرسلت تقريرًا إضافيًا إلى السنيور (رافلس)[1] صارحته فيه بمظالم المقيم الإسباني في الريف السنيور (خوان موليس) فردّ عليّ بكتاب مضلّل يلتمس له فيه المخارج من تلك المظالم بطريقة أجبرته على تولّي خطّة الدفاع بدل المؤاخذة بحيث لو كلّف المقيم نفسه الدفاع عن نفسه لما قال شيئًا غير ما يقوله السنيور (رافلس).

لهذا وأمثاله رأيت من واجبي أن أتمسّك بالحذر كلّ الحذر في اتّصالي بالأوروبيين والتوقّي من مناويهم ما لم تقترن بعمل جدّي ظاهر يفيد المصلحة المشتركة بين الطرفين، وأنا إذ لم أقتنع بذلك فلست أستطيع أن أنصح الأمّة بأن تعطيهم قليلاً ولا كثيرًا ما لم تأخذ عوضًا مساويًا لما تعطيه. إنّ الإسبان لا يطلبون منّا شيئًا قليلاً يمكن لنا أن نفتديه على سبيل التجربة، بل إنّهم يطلبون ويلحّون بأن نفتح لهم قلوبنا وأذرعتنا ونمكّن أيديهم من خزائن الشرق وأسواقه ولكن لقاء ماذا؟ لقاء وعود وابتسامات خادعة سمعنا منهما شيئًا كثيرًا في فرنسا وغيرها من عواصم أوروبا وكفانا بها عبرة.

سمحت لي فرنسا بالعودة إلى تونس وقد أبيت التعجيل خوفًا من إظهار الرغبة أو الوقوع في الفخّ لأنّ الدعاية الواسعة التي قمت بها ضدّ سياسة التجنيس في الأنحاء المختلفة من العالم الإسلامي كانت صعبة جدًّا لذلك رأيت من الحكمة أن أتريّث إلى أن ينجلي الموقف السياسي في المشكلة الدولية الأوروبية. أمّا إذا تلبّد فإنّ العمل في الخارج أرفق بكثير منه في الداخل والآن أستودعك الله إلى الكتاب التالي.

كاتبني إلى عدن بعنوان شباك «البوست ريستانت»[2] وإلى بنباي بعنوان محل الشيخ عبد اللطيف محمّد آل عبد الرزاق.

الشيخ عبد العزيز الثعالبي

---

(١) السينيور رافس من أعضاء الجمعيّة الإسبانية الإسلامية وكاتبها العام. نائب سابق بالبرلمان الإسباني (عضو بالحزب الإشتراكي).
(٢) «بوست ريستانت»: كلمة من أصل فرنسي تعني أن يكون العنوان في محلّ البريد ذاته.

رسالة رقم ١٥ **القدس الشريف ١٩٣٤/٨/٢٦ (١٩٣٣/٥/١٦)**

سيّدي الأخ الأمير الأجلّ أعزّه الله وأيّده به، كلمة الحقّ ونفّع ببلائه وجهاده الإسلام والمسلمين:

مولاي،

لقد كان لتلك السويعات القصيرة المعدودة التي تلاقينا فوق أديم فلسطين بين معتلج الدسائس ومهابّ الفتن أثر بليغ في نفسي لا يكاد يفارقني ولو أنني رزقت نصيبًا من البيان لوصفته في أجمل صورة فنّية أتحف بها عالم الأدب تكون رمزًا لشعور الاغتباط الهني بلقاء صديقين تعاقدًا على الوفاء وتحالفًا على الإخلاص لله وللوطن، لقاء الجندي الأمير في أرض مسبعة وهما ينازلان الضوارس الكاسرة ويصدّان غارتها عن العرين. ومن منّا معاشر الجنود من العرب لا يكون مغتبطًا في ساحة الوغى بلقاء الأمير وقد بايعناه على المنشط والمكره ونحن (...)[1] في الإصلاب فلا غروّ أن يكون يوم لقائه عندهم عيدًا، وقد كانوا يتمنّون شهوده طيفًا في الحلم فكيف به إذا واتتهم به المصادفة يقضة يستلمون منه العقيدة والإيمان وقد حاول الأعداء الكاشحون أن يحولوا دون هذه الأمنية بكلّ ما أوتوا من بأس وقوّة وأن يكتبوا هذه الأمنية في صدور الجنود فأقاموا الحواجز والموانع دون اتّصال الأمير بمواطنه، وقالوا لن ندعك تدخلها ما دمنا فيها وبأيدينا المفاتح والمغالق إلاّ أن يضل سعيهم ويبطل كيدهم فدخلتها في مدح وخيلاء والأنوف راغمة. ولا يهولنّك يا صديقي هذا الإعنات من الأعداء فهو أعلى شهادة ينالها البطل في حرب الإنقاد الذي ضلّت البشريّة تؤلّهه وتعبده وتقدّم له الضحايا والقرابين آلافًا من السنين وما زال البطل معبودًا إلى هذا اليوم، وأشدّ ما تخشاه أوروبا الظالمة أن يقوم بطل في العرب يتقدّم لتحرير بلادهم وإنقاد مواطنيه وقد جعلهما معسف لضلالها وظلامها منتبهًا لسرّاقها وسفّاكها نريد بذلك أن تطفئ فيها الرخاوة على المشاعر

---

(١) غير واضح بالمخطوط الأصلي.

وتتسلّط الغثانة على الطباع (...)[1] الفحل وسترتخي الذكورة ويصير الناس خليطًا معفونًا بلا آباء ولا مروءة ومهمة البطل هدم هذا الصنيع وتقويض أسسه الخبيثة لذلك يرون وجودك في قطر من الأقطار التي انتهبوها خطرًا عليهم فيما نحن وإيّاهم (...)[2] معركة مستعدّة بين الشرق والغرب وتستمرّ إلى أن تظفر بالخلاص وحسبنا الله وهو الذي تكفّل بنفسه إلى المجاهدين الصابرين. لم يتقرّر بعد سفري إلى أوروبا وما زلت أتطلّع إلى الكتاب الذي أنتظره من باريس، وقد علمت أنَّ في تونس حركة تدبّر ضدّ المؤامرة التي حدثت ضدّي وأنا في موقفي الحاضر لا أريد أن أطلع أحدًا على قلّة رغبتي في الرجوع إلى تونس لأثير مشكلة جديدة بين التونسيين والحكومة وهذا وقتها.

عاد الشيخ عبد القادر البدايوني إلى الهند للمفاهمة مع الأحزاب الإسلامية في ترشيح أعضاء الوفد الإسلامي الذي سيذهب إلى لندن للدفاع عن قضيّة فلسطين وقد اتّفقنا على أن يكون ممثّلاً من العالم الإسلامي: الهند، الأفغان، إيران، العراق، سوريا، مصر، تونس، الجزائر ومراكش. وقد رأينا اختيار سعيد أفندي الحاج نائبًا عن العراق وإحسان بك الجابري عن سوريا وعبد الرحمن بك عزام عن مصر ولم أرشّح أحدًا إلى الآن عن الجزائر ومراكش. وإن كان المرشّح عندي عن مراكش هو السيِّد أحمد بلافريج فما رأيك؟

وقد اتّفقت مع الأخ البدايوني على حضوره الوفد في مؤتمر جنيف في الميعاد الذي قرّرتموه أوائل شهر أكتوبر المقبل، وممّا جعلني أتفاءل بعمل هذا الوفد إجماع المسلمين في الهند على تعليق قبول الدستور الهندي الجديد على إرضاء رغبات العرب في فلسطين، كما صرّح بذلك الأستاذ البدايوني للمندوب السامي في فلسطين.

---

(١) غير واضح بالمخطوط الأصلي.

(٢) غير واضح بالمخطوط الأصلي.

أرجو أن تكونوا قد وصلتم بسلامة الله إلى جنيف وأن تكون العائلة والأنجال بصحة تامّة وعافية شاملة وأن يكون الأخ إحسان بك الجابري مع حرمه قد وصلا مسرورين دون مشقّة في الطريق. لم يزل ابنكم عرفات البيطار يذكر تلك اللحظات التي كنتم تشرّفون فيها منزله بالإجلال والإكبار وهو وحرمه يهديانكم أجزل التحيّات ويدعوان لكم بالسعادة والهناء ويعرضان أنفسهما كجنديين متطوّعين في الخدمة ويقولان إنّهما رهن الأمر والإشارة.

الشيخ عبد العزيز الثعالبي

جنيف ١٩ جمادى الآخر ١٢٥٢ (١٩/١٠/١٩٣٤)

رسالة رقم ١٦

سيِّدي الأخ الأستاذ أمتع الله الإسلام بطول حياته:

نعم لقد كنت سعيدًا بلقائكم تلك الأيام التي هي كجميع أيام السرور قصار وقد تسنّى لي أن أستفيد منكم في هذه المدّة القصيرة ما لا يستفيد المرء في الأعمار وأني غير قاطع للرجاء من الاجتماع مرّة أخرى وقتًا أطول وفرصة أعلّ وأنهل إن شاء الله تعالى.

جميعنا في تطلّع زائد إلى أخبار تونس نراقبها كلّ يوم ولا نشكّ أنَّ الحوادث الأخيرة في تونس مع ما هو مشهود من القلق في الجزائر ومع مثل ذلك وأشدّ منه في مراكش قد فتحت عيون الجماعة المعهودين - حتّى صرنا نقرأ مقالات في الصحف لأشدّ المستعمرين تعصّبًا ينهون فيها عن إرهاق المسلمين وإيصالهم إلى اليأس وكلّ يوم يرسلون لي من باريس مقالات من هذا النوع كما أنني سمعت أنَّ مجلس نظّار فرنسا[1] عقد جلسة للمذاكرة في قضيّة فرنسا والإسلام وقد أجمعت الحكومة على أنَّ هذه الحالة في شمال أفريقية لا بدّ من تلافيها، أمَّا شكل التلافي فلم نعلمه بعد. نعم في تونس أعلنت الحكومة توقيف بيع الأراضي المرهونة وبيع المواشي وغير ذلك من التدابير الاقتصادية[2]. لكن هذا لم يخفّف الهيجان لا سيَّما بعد نفي زعماء حزب الدستور. وماذا نقول في ما يشيع من رجوع بعض الزعماء الذين كانوا مشوا مع الحكومة إلىالصواب واستعفائهم من اللجان التي كان المقيم العامّ باشر تشكيلها[3]. في المغرب أوقفت فرنسا العمل بالظهير البربري لكن بشكل مبهم لم تسترح به الأفكار، فلهذا الأهالي لا يزالون ساخطين وقد زاد سخطهم تعطيل الجرائد الفرنسية العبارة الإسلامية[4] المبدأ في فاس ومنع مجلّة

---

(١) مجلس نظّار فرنسا وهو Chambre du Sénat.

(٢) إعلان الحكومة في تونس توقيف بيع الأراضي... راجع الزهرة، ١٤ مارس ١٩٣٤.

(٣) خروج بعض التونسيين من اللجنة التي شكّلها بيرون، راجع الدكتور أحمد بن ميلاد ومحمَّد مسعود إدريس: الشيخ الثعالبي والحركة الوطنية - الجزء الأول، بيت الحكمة، تونس ١٩٩١، ص. [غير مدوّن]

(٤) منع الجرائد الفرنسية اللغة في فاس بالمغرب، راجع عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية المغربية، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، مطابع الشركة المغربية للطبع والنشر، ١٩٧٦.

المغرب الصادرة في باريس التي سمّيت أخيرًا بالأطلس من دخول المغرب ولذلك قدم وفد من فاس والرباط إلى باريس لأجل التشكّي من هذا الضغط وقد اتّصلوا ببعض رجال البرلمان، ويقال إنَّ من هؤلاء من يسعى في إنصاف المغاربة تخفيفًا لهذه الأزمة السياسية. إنّي أرى الدور الحالي في الأقطار المغربية الأقصى والأوسط والأقرب دورًا له ما بعده وقد سمعت عن لسان الماريشال (Pétain) أنه يقول: إذا حصلت حرب في المستقبل فلا أمل لنا في سوق المغاربة إلى القتال وهذا حال ينبغي تداركها. كيف يتداركونها؟ لست أعلم؟ المؤتمر الإسلامي الأوروبي قد أجّلناه إلى الصيف القادم وذلك لأنَّ الوقت أصبح ضيّقًا بهذا الصيف، نعم إنَّه يمكن عقده ويأتي أناس كثيرون لكنّنا شعرنا أنَّ مسلمي البلقان أكثرهم متخلّفون عن الحضور ما عدا ألبانيا فقد أشعرتنا حكومتها بأنها حاضرة لإرسال وفد إسلامي منها، فأمَّا رومانيا فقد اعتذر مفتيها الكبير ولم نعلم أسباب اعتذاره، وأمَّا تراقيا العربية في اليونان فقد اعتذر مفتيها أيضًا ثمَّ جاءتنا كتابة من جمعيّة اتّحاد المسلمين هناك تقول أنه بعد أن حصلت المحادثة بين تركيا واليونان تسلّطت أنقرة تسلّطًا تامًّا على مسلمي تراقيا وحملت حكومة اليونان على تقليد المناصب الدينية وغيرها من وظائف المسلمين إلى الحزب الأنقري الذي يلبس البرنيطة ويكتب بالحروف اللاتينية ويقاوم الديانة الإسلامية علنًا، وأنهم لا يستطيعون حضور مؤتمرنا بسبب الضغط الواقع عليهم من اليونان وأنقرة معًا. وأمّا بلغاريا فلم يجب مفتيها على تلغرافاتنا ومكاتيبنا لا سلبًا ولا إيجابًا والذي نقرأه في جرائد مسلمي بلغاريا يدلّ على أنَّ الخلاف متفاقم بين الحزبين الحزب الأنقري والحزب المحافظ، ولا شكّ أنَّ علماء الدين يقاومون الكماليين ولكنّهم قد يتجنّبون حضور مؤتمرنا خوفًا من ثورة الحزب الكمالي عليهم.

وهناك احتمال آخر وهو أنَّ حكومة بلغاريا لا تريد أنَّ مسلمي بلادها يشتركون في مؤتمر يكون موضوعه التكافل بين المسلمين ولو كنّا نعلن أنَّ المؤتمر لا يتعرّض للسياسة، وأغرب من الجميع خطّة مسلمي يوغوسلافيا فقد كانوا

جميعهم راغبين في هذا المؤتمر واعدين بحضوره وقد أبرقنا لهم ثمَّ كتبنا تحريرًا إلى رئيس العلماء الأعظم في بلغراد وإلى رئيس مجلس العلماء في بوسنة سراي فلم يرد لنا منها جوابًا لا بسلب ولا بإيجاب ممَّا يدلّ على أنّ هناك أسبابًا حدثت من جديد منعت حضورهم وهم لا يجرؤون أن يصرّحوا بها، وما أظنّ السبب إلاَّ تقارب تركيا ويوغوسلافيا اللتين هما واليونان ورومانيا عقدن العهد البلقاني، وبديهي أنه بعد التقارب بين أنقرة وبلغراد تسعى أنقرة في منع مسلمي يوغسلافيا من الاشتراك معنا في هذا المؤتمر وكذلك مفتي رومانيا ربّما تكون حكومته هي التي أخّرته عن الحضور. أمَّا من المجر فعدم الحضور ليس بأسباب سياسية بل بأسباب اقتصادية ـ وأمَّا مفتي بولونيا فقد جاء وهو الآن بين أظهرنا، وقد كنّا أبرقنا إليه بتأجيلنا المؤتمر إلى الصيف القادم فصادف خروجه من بلاده إلى هنا قبل وصول البرقيّة إليه وهو من أحسن الناس وأرقاهم. أمّا الطلبة في باريس وبرلين وغيرهما فقد لبّوا الدعوة ولكنّنا أبرقنا إليهم بخبر التأخير.

نعم وصلنا إلى جنيف ورأينا العائلة بخير وأخي إحسان بك هو وعائلته بخير أيضًا وقريبًا نستأنف إصدار مجلّتنا وفيها مباحث كثيرة هذه المرّة بشأن تونس والجزائر والمغرب. وربَّما نتوجّه قريبًا إلى برلين فنغيب فيها جمعتين ثمَّ نعود إلى هنا. أفغانستان دخلت في عصبة الأمم ويوم دخولها رحّبت بها الدول وخطب جعفر باشا العسكري متمنّيًا دخول سوريا ومصر في العصبة الدولية، وأمَّا ناظر خارجية العجم فمع كون جعفر باشا أراده على تصريح كهذا فإنَّه لم يفعل بل اقتصر على الترحيب بأفغانستان وكذلك جعفر باشا تكلّم مع توفيق رشدي في الموضوع نفسه فلم يشأ أن يصرّح بهذا التمنّي الذي لا يزيد عن تمنّي، وفي هذا معنى لا يخفى عن العرب...

أرجو إن كنتم في القدس أن تقبّلوا عنّي عيون ولدنا السيِّد عرفات البيطار الذي لا أنساه والذي أنقذني الله من ولائمه التي كانت خطرًا على معدتي بكثرة لذائذها فالله تعالى سلم بحسن نيّته والله لا يحرمني أن أراه مرّة ثانية وأن أسمع

عنه جميع الأخبار السارّة، وإن كنتم برحتم القدس فأرجو أن تهدوه سلامي وأشواقي والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم شكيب أرسلان

جنيف في ٢٤ شوال ١٢٥٢ (١٩٣٥/١/٣٠)

رسالة رقم ١٧

سيِّدي الأخ الأستاذ العَلم المفرد الشيخ عبد العزيز الثعالبي أطال الله بقاءه:

لا شكّ أنكم تسمعون بأَسم السيِّد محمَّد داود من فضلاء المغرب، ولكن ربَّما لم يكن تيسّر له التشرّف بمعرفتكم ولمّا كان قد التمس منّي أن أقدّمه لمن أعتمد عليه وأثق بفضله الحقيقي من أعلام الإسلام في أثناء رحلته إلى الشرق لتأدية الفريضة فقد جئت بأسطري هذه لا موصيًا إيّاكم به لأنه بعد المعرفة يغنيكم عن تزكية مثلي لمثله، ولكن راجيًا منكم أن تطيلوا اجتماعاتكم معه ليحظى منكم بمجالس متعدّدة يزداد بها نورًا على نور وربّما يندر أن يسمع في غيرها من الفوائد التي سمعها منكم فهذه فرصة له ليزداد علمًا واطّلاعًا ومعرفة بأحوال الإسلام وغيره، وإنَّ ولدنا الأستاذ المشار إليه هو صديق ولدكم السيِّد أحمد توفيق المدني[1] وكأنَّ هذين الشابين فرقدان في العلم والفضل والحميّة والجدّ والاستقامة وبهذه المناسبة كتب لي السيِّد توفيق المدني يسألني بعد أن عرف اجتماعاتنا في القدس هل أنتم تذكرونه وهل رضاكم عنه باقٍ كما كان؟

فأجبته أنَّ الذي شعرت به من جهة الأستاذ الثعالبي أنه يعزّكم ويعتمد عليكم ويعدّكم من أنجب أولاده وأفضل من يتفرّس فيهم الخير لهذه الأمّة.

فهذا ما اتّخذته وسيلة لافتقاد خاطركم وإن كنت لم أكتب لكم من أوروبا حتّى الآن. فالله يعلم أني دائمًا معكم بالروح وأني أنتظر أول فرصة للمكاتبة ولا شكّ أنَّ الأشغال دائمًا كثيرة ولكنّها كانت هذه الأيام أكثر نظرًا لعدّة كتب تحت الطبع. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم شكيب أرسلان

---

(١) أحمد توفيق المداني (١٨٩٩ ـ ١٩٨٣). من أصل جزائري تونسي المولد والنشأة والتعليم، ساهم في الحركة الوطنية منذ الحرب العالمية الأولى وعند بداية الحزب الدستوري نفي إلى الجزائر سنة ١٩٢٥، ساهم بالجرائد التونسية والجزائرية. أسّس نادي (الترقّي)، ساهم في الحركة الوطنية الجزائرية، انتخب عضوًا إداريًا فأمينًا عامًّا (لجمعيّة العلماء) سنة ١٩٥٣، أوفدته الثورة الجزائرية إلى القاهرة، ثمّ وزيرًا للشؤون الثقافية في الحكومة المؤقّتة ثمّ سفيرًا بمصر ووزيرًا للأوقاف بعد الاستقلال، له مؤلّفات عديدة أهمّها (تقويم المنصور) ثمّ مذكّراته، حياة كفاح، وعديد المقالات الضمنية في عدد كبير من الجرائد التونسية والجزائرية والشرقية.

رسالة رقم ١٨ جنيف في ٢٤ صفر ١٣٥٤ (١٩٣٥/٥/٢٨)

حضرة سيّدي الأستاذ السيّد عبد العزيز الثعالبي الأفخم:

لا أعلم إذا كانت وصلت إليكم الأعداد الأخيرة من مجلّتنا (لا ناسيون آراب) فإن لم تكن وصلت فأرجو تعريفنا ذلك. لا يكاد يوجد عدد من هذه المجلّة من قبل ومن بعد خاليًا من الدفاع عن تونس.

ومع هذا فما وجدت قطرًا تهافتت جرائده على نشر الكتاب المزوّر[1] على مثل القطر التونسي حتّى أنَّ بعض الإخوان هناك كتب لي يأسف ممّا وقع. قصدت أن يكون هذا محاطًا بعلمكم متّخذًا هذه الفرصة وسيلة لافتقاد خاطركم الكريم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم شكيب أرسلان

(1) نشر الكتاب المزوّر على شكيب أرسلان بالجرائد التونسية بالزهرة في ٣٠ أفريل ١٩٣٥ (العرب والدعاية).

جنيف في ٢٦ صفر ١٣٥٤ (١٩٣٥/٥/٣٠)

رسالة رقم ١٩

سيِّدي الأخ الأستاذ:

من يومين أو ثلاث كتبت إليك أتعتّب على تهافت جرائد تونس على نشر التزويرة التي وقعت عليّ ولكنّي علمت بعد ذلك أنَّ إخواننا التونسيين استنكروا جدًّا هذا التهافت وأنهم تألّموا لحادثة هذا الكتاب المزوّر أشدّ التألّم[1].

فجئت أعرض لكم الواقع وأقول إنَّ عتبي ليس على إخواننا التونسيين بل على بعض جرائدهم التي لم تتذكّر قوله تعالى: ﴿إن جاءكم فاسق بنبإ فتبيّنوا﴾ وصارت لي هذه فرصة ثانية لافتقاد خاطركم الكريم.

أخوكم شكيب أرسلان

(١) الردّ على نقد شكيب أرسلان في الجرائد التونسية صدر أيضًا بالزهرة ٨ ماي ١٩٣٥ (الأمير شكيب أرسلان يكذب برقيا) وكتب هذا التكذيب في جريدة (الجامعة الإسلامية) و(النهار) ونشره إحسان الجابري ونقلته باقي الجرائد الأخرى.

فهرست المحتويات

١٨٦٩ ـ ١٩٤٦

... يا سيّدي لو كان ثمّة بقي مسلمون لكانوا أحيوا الإسلام في إسبانيا من جديد. ولكن واحسرتاه على الإسلام أين هو؟ إنّ بلادًا كان فيها ملايين من المسلمين مدّة ألف سنة وأعقابهم هم يعرفون أنّ أصلهم عرب ومن هم مفتخرون بذلك. أفلا يمكن تجديد روح الإسلام فيهم؟ بلى ولكن لا بدّ من السعي.

بعض الناس يقولون: نحن مشغولون بأنفسنا وببلداننا وليس عندنا وقت لإسبانيا وتجديد الإسلام أو العروبة فيها. يجب علينا أن نتفرّغ للإسلام والعروبة في عقر دارنا. أقول لهم هذا خطأ منكم فالأمة التي لا تفيض إلى الخارج لا يرجى أن تحفظ نفسها في الداخل. إن كنّا لا نقدر أن نثبت ثقافتنا وعقيدتنا في البلدان النائية فذلك دليل على أننا عاجزون عن حفظها في البلاد التي هي تحت أرجلنا.

شكيب أرسلان